

من كتاب نهاية الأرب للنويري

oboeikandi.com

ذكر أخبار الملوك السلجقية بالشام وحلب

وأول من ملك منهم السلطان تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان محمد ابن جغريبك داود بن ميكائيل بن سلجق، وهو أخو ملكشاه وكان السلطان ملكشاه قد أقطعه الشام وما يفتحه من تلك النواحي في سنة سبعين وأربعمائة، ف جاء إلى حلب وحصرها ولحق أهلها مجاعة شديدة. وكان معه جماعة كثيرة من التركمان فأنفذ إليه الأقيسيس^(١) صاحب دمشق يستنجده على العساكر المصرية، لأنها كانت قد حاصرته بدمشق من قبل أمير الجيوش بدر الجمالي، فسار إلى نصره الأقيسيس، فلما سمع العسكر المصري بقربه فارقوا البلد وعادوا إلى مصر، وخرج الأقيسيس يلتقيه عند سور دمشق، فاغتاظ منه تتش كونه لم يتقدم في تلقيه، وعاتبه، فاعتذر بأمور لم يقبلها منه، فقبض عليه تتش في الوقت وقتله، وملك دمشق وأحسن السيرة في أهلها، وعدل فيهم وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة اثنتين وسبعين.

وفي سنة أربع وسبعين افتتح تاج الدولة انطربوس وبعض الحصون الساحلية، وعاد إلى دمشق، وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة كانت الحرب بينه وبين سليمان بن قتلمش السلجقي صاحب الروم وأنطاكية، فهزم عسكره وقتله على ما ذكره إن شاء الله في أخبار سليمان، وملك تتش مدينة حلب خلا القلعة، فكتب الحتيتي إلى السلطان ملكشاه يستدعيه، فوصل إليها وفارقها تتش كما قدمنا ذكره.

ذكر استيلائه على حمص وغيرها من ساحل الشام

كان تاج الدولة تتش قد توجه إلى أخيه السلطان ملكشاه إلى بغداد في سنة أربع وثمانين، وجاء إليه زعماء الأطراف، فلما أذن لهم في العود أمر

أقسنقر صاحب حلب، وبوزان صاحب الرها، أن يسيرا في خدمة أخيه بعساكرهما إلى أن يستولي على ما هو للمستنصر العلوي صاحب مصر بساحل الشام من البلاد، ويتوجها معه إلى مصر ليملكها.

فساروا في سنة خمس وثمانين ، ونزلوا على حمص وحصروها وبها صاحبها خلف بن ملاعب، وكان الضرر به وبأولاده عظيما على المسلمين، فحصروا البلد وضيقوا على من به وملكه تتش، وأخذ ابن ملاعب وولديه، ثم سار إلى قلعة عرقة، وهي بالقرب من طرابلس، فملكها وملك أفامية، ثم نازل طرابلس وبها جلال الملك بن عمار، فراسل أقسنقر، وحمل إليه ثلاثين ألف دينار، وتحفا بمثلها، وعرض عليه المناشير التي بيده من السلطان بالبلد والتقدم إلى النواب بتلك البلاد بمساعدته، والتحذير من محاربتة، فقال أقسنقر لتتش: أنا لا أقاتل من هذه المناشير بيده، ورحل من الغد، فرحل تاج الدولة وعاد بوزان إلى بلاده، والله أعلم.

ذكر ما فعله في طلب السلطنة

قال: لما بلغ تاج الدولة تتش قدوم أخيه السلطان ملك شاه إلى بغداد توجه من دمشق إلى خدمته، فلما وصل إلى هيت أتاه الخبر بموته، فاستولى على هيت وعاد إلى دمشق فتجهز لطلب السلطنة ، وجمع العساكر وأخرج الأموال وسار إلى حلب وبها قسيم الدولة أقسنقر، فصالحه قسيم الدولة وأتبعه لما علم من اختلاف أولاد صاحبه، وأرسل إلى ياغي سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تاج الدولة، حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه، ففعلوا ذلك وصاروا معه وخطبوا له في بلادهم.

وقصد تتش الرحبة فملكها في المحرم سنة ست وثمانين وأربعمئة، ثم سار إلى نصيبين ففتحها عنوة وقتل من أهلها خلقا كثيرا ونهب الأموال،

وفعل الأفعال القبيحة، ثم سلمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة العقيلي، وسار يريد الموصل، وأتاه الكافي ابن فخر الدولة بن جهير وكان بجزيرة ابن عمر فاستوزره، والتقى بإبراهيم بن قريش في ثلاثين ألفاً، وتتش في عشرة آلاف، فاقتتلوا فانهزم إبراهيم والعرب، ثم أخذ أسيراً وجماعة من العرب فقتلوا صبراً، ونهبت أموالهم وما معهم من الخيل والإبل والأغنام وغيرها وقتل كثير من نساء العرب أنفسهن خوفاً من السبي والفضيحة، وملك تتش بلادهم الموصل وغيرها، واستناب بها علي ابن شرف الدولة مسلم، وهو ابن صافية عمه تتش.

ذكر ملكه ديار بكر وأذربيجان وعوده إلى الشام

قال: ثم سار تاج الدولة تتش في شهر ربيع الآخر فملك ميافارقين وسائر ديار بكر من ابن مروان، وسار منها إلى أذربيجان. وانتهى خبره إلى ابن أخيه بركياروق وكان قد استولى على كثير من البلاد، فسار في عسكره ليتبع عمه، فلما تقارب العسكران اجتمع قسيم الدولة وبوزان وقالوا: « نحن إنما أطعنا هذا حتى ننظر ما يكون من ابن صاحبنا، وقد ظهر أمره » ففارقاه والتحقا بركياروق فعاد تتش إلى الشام.

ذكر عود تتش إلى البلاد وملكه همذان وغيرها

قال: ولما عاد إلى الشام أخذ في جمع العساكر فكثر جموعه وعظم جنده. فسار في سنة سبع وثمانين وأربعمائة عن دمشق نحو حلب لطلب السلطنة، فاجتمع قسيم الدولة اقسنقر وبوزان وأمهما السلطان ركن الدولة بركياروق بالأمير كربوقا، فالتقوا بالقرب من تل السلطان، قريب حلب واقتتلوا واشتد القتال فانهزموا، وثبت قسيم الدولة فأخذ أسيراً وجيء به إلى تاج الدولة فقال له: « ما كنت تصنع بي لو ظفرت؟ » قال: « كنت أقتلك » وقال: « فأنا أحكم عليك بحكمك » فقتله

صبرا. وسار نحو حلب، ودخلها وأسر كربوقا وبوزان وتسلم الرها وحران. وسار إلى بلاد الجزيرة فملكها جميعها، وملك ديار بكر وخلاط. وسار إلى أذربيجان فملك جميع بلادها، ثم منها إلى همدان فملكها، واستوزر فخر الملك بن نظام الملك.

ذكر انهزام بركياروق منه

قال: ولما سار تتش إلى أذربيجان كان بركياروق بنصيبين فبلغه الخبر فسار إلى قتاله ولم يكن معه غير ألف رجل، وعمه في خمسين ألفا. فجهز إليه عمه بعض الأمراء فكبسه وهزمه ونهب سواده، فسار إلى أصفهان على ما ذكرناه في أخباره وخطب للسلطان تاج الدولة ببغداد.

ذكر قتل تاج الدولة تتش

قال: ولما هزم بركياروق سار من موضع الواقعة إلى همدان، ثم سار إلى الري، وكاتب الأمراء الذين بأصفهان يدعوهم إلى طاعته، ويبدل لهم الأموال الكثيرة. وكان بركياروق مريضا بالجدري، فأجابوه يعدونه أنهم ينحازون إليه، وهم ينتظرون ما يكون من صاحبهم. فلما عوفي بركياروق أرسلوا إلى تتش أنه ليس لك عندنا إلا السيف، وخرجوا له والتقوا بموضع قريب من الري، وقد كثرت جموع بركياروق، فانهزم أصحاب تتش وثبت هو في القلب فقتله أصحاب قسيم الدولة بثأر صاحبهم، والله أعلم.

ذكر حال الملك رضوان وأخيه دقاق بعد قتل أبيهما تتش

قال: كان تاج الدولة تتش قد أوصى أصحابه بطاعة ابنه الملك رضوان، وكتب إليه من بلد الجبل قبل المصاف الذي قتل فيه يأمره بالمسير إلى بغداد، وأن يقيم بدار المملكة. فسار في عدد كثير منهم

إيلغازى بن أرتق، والأمير وثاب بن محمود بن صالح بن مرداس وغيرهما، فلما قارب هيت جاءه الخبر بقتل أبيه، فعاد إلى حلب ومعه والدته فملكها، وكان بها أبو القاسم بن بديع الخوارزمي قد سلمها تتش إليه، وحكمه فيها وفي القلعة. ولحق برضوان زوج أمه جناح الدولة الحسين بن إيتكين، وكان مع تتش فسلم من المعركة. وكان مع رضوان أيضا أخواه الصغيران أبو طالب وبهرام، فكانوا كلهم مع أبي القاسم كالأضياف لتحكمه في البلد، فاستمال جناح الدولة المغاربة، وكانوا أكثر أجناد القلعة، فلما انتصف الليل نادوا بشعار الملك رضوان، واحتاطوا على أبي القاسم، وأرسل إليه الملك رضوان يطيب قلبه، فاعتذر فقبل عذره، وخطب لرضوان على منابر حلب وأعمالها، وكانت الخطبة قد دامت باسم أبيه بعد قتله نحو شهرين.

وسار جناح الدولة في تدبير الدولة أحسن سيرة، وخالف عليهم الأمير ياغى سيان بن محمد بن ألب التركماني، صاحب أنطاكية، ثم صالحهم، وأشار على الملك رضوان بقصد ديار بكر لخلوها من وال يحفظها، فساروا جميعا وقدم عليهم من بالأطراف الذين كان تتش قد رتبهم فيها، وقصدوا سروج، فسبقهم إليها الأمير سقمان بن أرتق فأخذها ومنعهم منها، وأمر أهل البلد فخرجوا إلى رضوان وتظلموا من عساكره وما يفسدونه من غلاتهم، ويسألونه الرحيل، فرحل عنهم إلى الرها، وكان بها رجل يقال له الفارقليط - كان يضمن البلد من بوزان - فقاتل قتالا شديدا ثم ملكها، وطلب ياغى سيان القلعة من رضوان فوهبها له، فتسلمها وحصنها، فهرب رجالها، وأرسل إليهم أهل حران يطلبونهم ليسلموا إليهم البلد، فسمع ذلك قراجا فصلب ابن الفتى وغيره ممن اتهمهم، وجاء الخبر إلى رضوان وقد اختلف جناح الدولة وياغى سيان وأضمر كل منهما لصاحبه الغدر، فهرب جناح الدولة إلى حلب فدخلها، واجتمع بزوجته أم الملك رضوان، وسار رضوان وياغى سيان إلى حلب، فسمع بدخول جناح الدولة إليها، ففارق ياغى سيان

الملك رضوان وسار إلى أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي ودخل رضوان حلب.

هذا ما كان من أمر رضوان ، وأما الملك دقاق بن تنش، فإنه كان قد حضر المصاف مع أبيه، فلما قتل أبوه أخذه إيتكين الحلبي - وهو من غلمان أبيه - وسار به إلى حلب، فأقام عند أخيه الملك رضوان.

ثم راسله الأمير ساوتكين الخادم - متولي دمشق - سرا يدعوه ليملكه دمشق، فهرب من حلب، فأرسل أخوه رضوان في طلبه عدة من الخدام فلم يدركوه، وسار حتى وصل إلى دمشق ففرح به ساوتكين الخادم وأظهر البشر لوروده، فلما صار بدمشق أرسل إليه ياغي سيان يشير عليه أن ينفرد بملك دمشق عن أخيه رضوان، واتفق وصول معتمد الدولة طغتكين إلى دمشق ومعه جماعة من خواص تنش وعسكره، وقد سلموا من الوقعة، وكان طغتكين قد أسر ثم خلص، فلما وصل إلى دمشق لقيه الملك دقاق وأرباب الدولة وبالغوا في تعظيمه وإكرامه. وكان طغتكين زوج والدة دقاق، فمال إليه لذلك ووثق به وحكمه في بلاده. ثم اتفقا على قتل ساوتكين الخادم فقتلاه، وسار إليه ياغي سيان من أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي فجعله وزيراً لدقاق، وحكمه في دولته. فصارت دمشق لدقاق وحلب لرضوان.

ذكر الحرب بين الملكين رضوان وأخيه دقاق

وفي سنة تسعين وأربعمائة سار الملك رضوان من حلب إلى دمشق يريد الاستيلاء عليها وانتزاعها من أخيه دقاق، فلما قاربها رأى حصانتها وامتناعها، فعلم عجزه عنها ، فسار إلى نابلس وإلى القدس ليأخذه، فلم يمكنه ذلك، وانقطعت العساكر عنه فعاد إلى حلب ومعه ياغي سيان صاحب أنطاكية وجناح الدولة ، وكانا قد التحقا به. ثم فارقه ياغي

سيان وقصد دقاق وحسن له محاصرة أخيه بحلب. فجمع دقاق عساكره وسار ومعه ياغي سيان، فأرسل رضوان إلى سقمان بن أرتق وهو بسروج يستنجده، فأتاه في خلق كثير من التركمان. فسار بهم رضوان نحو دقاق وعسكره ونهبت خيامهم وأموالهم، وعاد رضوان إلى حلب، ثم اتفقا على أن يخطب لرضوان بدمشق وأنطاكية قبل أخيه دقاق، وقيل كان ذلك في سنة تسع وثمانين.

وفي سنة تسعين وأربعمائة خطب الملك رضوان في أكثر ولايته للمستعلي بأمر الله صاحب مصر، وسبب ذلك أن جناح الدولة كان قد فارق رضوان لتغير رأه منه، وجاء إلى حمص وكانت له، فلما رأى ياغي سيان بعده عن رضوان صالحه، وجاء إلى حلب، ونزل بظاهرها وكان لرضوان منجم يقال له الحكيم أبو سعد يميل إليه، فقدمه بعد مسير جناح الدولة فحسن له مذهب العلويين، وأتته رسل المستعلي تدعوه إلى طاعته ويبدل له المال وإنفاذ الجيوش لأخذ دمشق، فخطب له بشيزر وجميع أعمال ولايته سوى أنطاكية، وقلعة حلب، والمعرة، وكانت الخطبة أربع جمع.

ثم حضر إليه سقمان بن أرتق، وياغي سيان فأنكرا ذلك واستعظماه فأعاد الخطبة العباسية، وسار ياغي سيان إلى أنطاكية فلم يبق بها غير ثلاثة أيام حتى وصل الفرنج إليها وحصروها وملكوها في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار المستعلي صاحب مصر.

ذكر ملك دقاق مدينة الرحبة

وفي شعبان سنة ست وتسعين وأربعمائة ملك الملك دقاق مدينة الرحبة، وكانت بيد قايماز أحد مماليك السلطان ألب أرسلان، استولى

عليها لما قتل كربوقا، فسار دقاق وطغتكين أتابك إليه وحصره، ثم رحلا عنه. فاتفقت وفاته في صفر من هذه السنة، وقام مقامه غلام تركي اسمه حسن، وخطب لنفسه وخاف من الملك دقاق، فاستظهر لنفسه، وأخذ جماعة من أعيان البلد وصادرهم وحبس آخرين، فسار دقاق إليه وحصره، فسلم العامة البلد واعتصم هو بالقلعة، فأمنه دقاق وسلمها له فتسلمها وأقطعه إقطاعا كثيرا بالشام، وقرر الرحبة وجعل فيها من يحفظها وعاد إلى دمشق.

ذكر وفاة الملك دقاق وملك ولده ثم أخيه

كانت وفاته في شهر رمضان سبع وتسعين وأربعمائة، ولما توفي خطب أتابكه طغتكين لولد له صغير عمره سنة واحدة، ثم قطع خطبته وخطب لأرتاش بن تتش عم هذا الطفل في ذي الحجة وله من العمر اثني عشرة سنة، ثم أشار عليه طغتكين بقصد الرحبة فخرج إليها وملكها، وعاد فمنعه من دخول البلد، فمضى إلى حصون له، وأعاد طغتكين خطبة الطفل ولد دقاق، وقيل إن والدة أرتاش خوفته من طغتكين وقالت له: إنه زوج أم دقاق، وهي لا تتركه حتى يقتلك ويستقيم الملك لولد ابنها، ثم حسن له من يحسد طغتكين مفارقة دمشق وقصد بعلبك وجمع الرجال والاستنجاد بالفرنج، والعود إلى دمشق وأخذها من طغتكين، فخرج من دمشق سرا في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة مع صغر سنة، ولحقه الأمير إيتكين الحلبي وهو صاحب بصرى، فعاثا في ناحية حوران، ولحق بهما من كان يريد الفساد، وراسلا بغدوين ملك الفرنج يستنجدانه، فأجابهما إلى ذلك، فسارا إليه واجتمعا به، وقررا معه القواعد، وأقاما عنده، فلم يريا منه إلا التحريض على الإفساد في أعمال دمشق وتخريبها، فلما يئسا من نصرته فارقا وتوجها في البرية إلى الرحبة فملكها أرتاش وعاد عنها، واستقام أمر طغتكين بدمشق، واستبد بالأمر وأحسن إلى الناس ونشر فيهم العدل..

هذا ما كان من أمر ملوك دمشق ثم انتقل ملكها إلى طغتكين وأولاده من بعده على ما ذكره إن شاء الله تعالى بعد ذكرنا للملوك حلب السلجقية، ومن ملكها بعدهم إلى أن ملكها أتابك زنكي بن أقسنقر.

ذكر أخبار ملوك حلب

قد قدمنا أن حلب كانت بيد الملك رضوان بن تتش، فلم تزل بيده إلى أن توفي في سنة سبع وخمسمائة، وكانت أموره غير مشكورة فإنه قتل أخويه أبا طالب وبهرام، وكان يستعين في كثير من أموره بالباطنية لقلّة تدبيره، فلما مات ملك بعده ابنه تاج الملوك ألب أرسلان الأخرس، وعمره ست عشرة سنة. ولم يكن أخرس، وإنما كان في لسانه حبسة وتمتمة، وأمّه بنت ياغي سيان الذي كان صاحب أنطاكية.

قال: ولما ملك تاج الملوك سلك سنة أبيه في قتل إخوته فقتل أخوين له وهما: شقيقه ملكشاه، ومبارك لأبيه، واستولى على أمور دولته لؤلؤ الخادم، فلم يكن لتاج الملوك معه في السلطنة غير اسمها، ومعناها للؤلؤ، ولم تطل مدته في الملك، فإن غلمان قتلوه في سنة ثمان وخمسمائة، وأقاموا بعده أخاه سلطان شاه بن رضوان، فكان مع لؤلؤ كعادة أخيه، فلما كان في سنة إحدى عشرة وخمسمائة - وقيل سنة عشر - قتل لؤلؤ المستولي على الأمر، وكان سبب قتله أنه أراد قتل سلطان شاه كما فعل بأخيه، ففطن غلمان سلطان شاه لذلك، فبادروه بالقتل. وولي أتابكة سلطان شاه بعده شمس الخواص ألتونتاش، فبقى شهراً وعزلوه، وولي بعده أبو المعالي بن الملحي الدمشقي ثم عزلوه وصادروه. فخاف أهل حلب من الفرنج فسلموا البلد إلى الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق، وانقرضت الدولة السلجقية من حلب، والله أعلم.

ذكر أخبار من ملك حلب بعد انقراض الدولة السلجقية منها

ملكها الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق باتفاق أهلها في سنة إحدى عشرة وخمسة، فتسلمها . وكان له مع الفرنج وقائع كثيرة وحروب يطول شرحها. واستتاب بحلب ولده سليمان، فخالفه وعصى عليه، في سنة خمس عشرة وخمسة وكان عمره إذ ذاك عشر سنين، فبلغ والده الخبر، فسار مجداً فلم يشعر إلا وقد هجم البلد وقبض على من كان حسن لابنه العصيان، وقتلهم. وكان منهم إنسان من أهل حماة من بيت قرناص، كان إيلغازي قد قدمه على أهل حلب، وجعل إليه الرئاسة فجازاه بذلك، فقطع يديه ورجليه وسمله فمات، وأراد قتل ولده فمنعته رقة الوالد، واستتاب بحلب سليمان شاه ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق، ولقبه بدر الدولة، وعاد إلى ماردين، فلم تزل حلب بيده، إلى أن توفي في سنة ست عشرة وخمسة بميفارقين. وبقي سليمان بحلب إلى أن استولى عليها، ابن عمه بلك بن بهرام بن أرتق، وبقيت بيد بلك إلى أن قتل في سنة ثمان عشرة وخمسة وهو يحاصر منبج، وكان قد قبض على صاحبها حسان البعلبكي، وملك المدينة وحاصر القلعة، فأتاه سهم فقتله وكان حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي مع عمه بلك، فحمله مقتولا إلى ظاهر حلب، فتسلمها في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة، واستولى عليها، وجعل فيها نائبا يثق به، وعاد إلى ماردين، وكان يجب الدعة والرفاهية، فلما عاد إلى ماردين ملك حلب أقسقر البرسقي صاحب الموصل بمكاتبة من أهلها، لأن الفرنج كانوا حاصروهم وضيقوا عليهم، فكتبوا إليه يستنجدونه، فحضر بعساكره، فرحل الفرنج عنها، وملكها في ذي الحجة سنة ثمان عشرة، فكانت بيده إلى أن قتل في سنة عشرين وخمسة على يد الباطنية.

وملك بعده ابنه عز الدين مسعود إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين

وخمسمائة، فبقيت بيد نائبه تومان ، ثم استتاب بعده بها قتلغ، فوصل إليها بعد وفاة مسعود، وتسلمها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، فظهر منه بعد أيام جور عظيم وظلم شديد، ومد يده إلى أموال الناس. وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق - الذي كان صاحبها قديما - فأطاعه أهلها، وقبضوا على أصحاب قتلغ الذين بالمدينة في شوال من السنة، وحاصروه في القلعة. فسمع الفرنج بذلك فتقدموا إلى المدينة، فصولحوا بهال حتى رحلوا عنها. وداموا على حصار قتلغ بالقلعة إلى منتصف ذي الحجة، ثم ملكها عماد الدين زنكي بن أقسنقر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الأتابكية، هذا ما كان من أمر حلب، فلندكر أخبار دمشق.

ذكر أخبار من ملك دمشق بعد انقراض السلجوقية منها إلى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكي

أول من ملكها معتمد الدولة ظهير الدين طغتكين ، وقيل فيه طغتكين وطغديكين، استولى على دمشق كما قدمناه في سنة سبع وتسعين وأربعمائة، واستقل بالأمر منذ فارقتها الملك أرتاش بن تتش وكان لطغديكين مع الفرنج وقائع كثيرة في سنين عديدة يطول شرحها، أضربنا عن ذكرها لأنها لم تسفر عن فتح بلد ولا أسر ملك وملك طغديكين بصرى في سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وكانت بيد إيتكين الحلبي، فلما صار مع السلطان الملك أرتاش كما ذكرنا سلمها أهلها لطغديكين، فتسلمها وأحسن إليهم، واستمر في ملك دمشق إلى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، فتوفي في ثامن عشر صفر منها، وكان عاقلا خيرا ، كثير الغزو والجهاد للفرنج، حسن السيرة في رعيته، مؤثرا للعدل فيهم. ولما توفي ملك بعده ابنه والله أعلم.

ذكر أخبار تاج الملوك بوزي بن أتاتك طغديكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه. في ثامن عشر صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسة بوصية من أبيه له بالملك. وكان أكبر أولاده، فلما ملك أقر وزير والده - وهو أبو علي طاهر بن سعد المزدغاني - على وزارته.

ذكر أخبار الاسماعيلية وقتل الوزير المزدغاني

كان بهرام مقدم الاسماعيلية قد هرب قديما من بغداد إلى الشام بعد قتل أخيه إبراهيم الأسد أبادي، وملك قلعة بانياس، وجعل خليفته بها يدعو الناس إلى مذهبه، فكثروا وانتشروا، وملك عدة حصون منها القدموس وغيره، وهي الآن تعرف بقلاع الإسماعيلية، من الأعمال المضافة إلى المملكة الطرابلسية.

وكان بوادي (التيم) من أعمال بعلبك أرباب مذاهب مختلفة منهم: النصيرية، والدرزية، والمجوس وغيرهم، وأميرهم اسمه الضحاك، فسار إليهم بهرام في سنة اثنتين وعشرين وخمسة وقاتلهم، فخرج إليه الضحاك في ألف رجل، وكبس عسكره وقتل منهم مقتلة عظيمة، وقتل بهرام فيمن قتل، وانهمز من بقي وأتوا بانياس على أقبح صورة. وكان بهرام قد استخلف على بانياس رجلا من أعيان أصحابه اسمه إسماعيل، فقام مقامه، وجمع شمل من سلم من أصحابه، وبث دعائه في البلاد، وساعده الوزير المزدغاني وعاضده وأقام المزدغاني بدمشق عوض بهرام إنسانا اسمه أبو الوفاء، فقوى أمره على شأنه، وكثر أتباعه حتى صار هو المستولي على دمشق، وحكم أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك. ثم إن المزدغاني راسل الفرنج ليسلم إليهم مدينة دمشق ويسلموا إليه مدينة صور، واستقر الأمر بينهم على ذلك، وتقرر الميعاد في يوم جمعة عينوه، وقرر المزدغاني مع الإسماعيلية أن يحتاطوا على أبواب الجامع في ذلك

اليوم، فلا يمكنوا أحدا من الخروج منه، لتجيبء الفرنج ويملكوا البلد. فاتصل الخبر بتاج الملوك، فاستدعى الوزير المزدغاني فحضر إليه فلما خلا به قتله وعلق رأسه على باب القلعة، ونادى في البلد بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف، وذلك في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسةائة. فخاف إسماعيل متولى بانياس عند ذلك من الناس أن يثوروا به وبأصحابه، فسلم بانياس إلى الفرنج، وانتقل إليهم هو ومن معه، فلقوا شدة عظيمة وهوانا ومات إسماعيل في أوائل سنة أربع وعشرين وخمسةائة.

ذكر حصار الفرنج دمشق وانهمزاهم

قال: ولما بلغ الفرنج ما كان من قتل المزدغاني، عظمت المصيبة عليهم، واجتمعوا بجملتهم، صاحب القدس، وصاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، وغيرهم من ملوك الفرنج وقباصتهم ومن وصل إليهم في البحر فكانوا في ألفي فارس، وأما الراجل فلا يحصى كثرة، وساروا إلى دمشق لمحاصرتها، فبلغ ذلك تاج الملوك، فجمع العرب والتركمان فاجتمع معه ثمانية آلاف فارس، ووصل الفرنج إلى دمشق في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين فنازلوها، وأرسلوا سراياهم إلى أعمالها لجمع الميرة والإغارة. فبلغ تاج الملوك أنهم ساروا إلى حوران، فسير أميرا من أمرائه اسمه شمس الخواص في جمع من المسلمين، فلقوا الفرنج وقاتلوهم قتالا شديدا، كان الظفر للمسلمين، وقتل الفرنج فلم يفلت منهم غير مقدمهم في أربعين رجلا، وأخذوا ما معهم، وكان عشرة آلاف دابة موقرة، وثلاثائة أسير، وعادوا إلى دمشق بالظفر والغنيمة. فألقى الله الرعب في قلوب الفرنج فرحلوا شبه المنهزمين، وأحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وغيره، وتبعهم المسلمون يقتلون من تخلف منهم. وكان نزولهم ورحيلهم في ذي الحجة. وفي سنة أربع وعشرين استوزر تاج الملوك الرئيس أبا الدواد المفرج بن الحسن بن الصوفي.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة

ثار الباطنية بتاج الملوك، فجرحوه جرحين فبرأ أحدهما وبقي الآخر، فاشتد عليه في شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة فأضعفه وأسقط قوته فمات في الحادي والعشرين من الشهر . وكانت مدة إمارته أربع سنين وخمسة أشهر وأياما، وكان كثير الجهاد مقداما فأقام في حروبه مقام أبيه، وفاق عليه، ولما مات قام بعده ولده إسماعيل بوصية منه.

ذكر أخبار شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بوري ابن طغديكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة. وكان والده قد أوصى له بالملك ولولده الآخر شمس الدولة محمد بمدينة بعلبك وأعمالها، فنفذت وصيته وقام بتدبير الأمر بين يدي شمس الملوك الحاجب فيروز شحنة دمشق - وهو صاحب أبيه - واعتمد عليه، وابتدأ أمره بالرفق بالرعية، والإحسان إليهم.

قال: وبلغ شمس الملوك أن أخاه شمس الدولة صاحب بعلبك استولى على حصني اللبوة والرأس، واستمال من بهما وتسلمهما، وجعل فيهما من الجند من يحفظهما، فراسله في ذلك وتلطف معه وقبح عليه فعله، وطلب إعادتهما إليه، فامتنع . فتجهز بعساكره في آخر ذي الحجة من السنة وقصد جهة الشمال، ثم عطف مغربا، فلم يشعر من بحصن اللبوة إلا وقد نزل عليهم، وزحف لوقته فلم يتمكنوا من نصب منجنيق ولا غيره، فراسلوه في طلب الأمان، فأمنهم وتسلم الحصن من يومه. وسار إلى حصن الرأس وفعل به كذلك، وتسلمه وجعل فيهما من يحفظهما. ثم رحل إلى بعلبك وحصرها وبها شمس الدولة وقد استعد، فوالى الزحف حتى ملك البلد بعد قتال شديد. وتحصن شمس الدولة

فنازله فراسله في طلب الأمان وأ ن يقره على ما أوصى له به والده، فأجابه إلى ذلك وعاد إلى دمشق.

ذكر ملكه قلعة بانياس

وفي سنة سبع وعشرين وخمسة مائة ملك شمس الملوك قلعة بانياس من الفرنج. وسبب ذلك أن الفرنج استضعفوه وطمعوا فيه. وكانت قد تقررت بينهم هدنة، فقصدوا نقضها، ومدوا أيديهم إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت، فشكا التجار ذلك إلى شمس الملوك، فراسل الفرنج في إعادة ما أخذوه، فلم يردوا شيئاً، فجمع العساكر وتأهب ولم يعلم أحداً بمقصده. ثم سار في آخر المحرم من السنة ونزل على بانياس في صفر، وزحف زحفاً متتابعاً. وقرب من سور المدينة وترجل بنفسه، وتبعه الناس فوصلوا إلى السور ونقبوه، ودخلوا البلد عنوة، والتجأ من كان فيه من جند الفرنج إلى الحصن، فقتل كثير من الفرنج بالبلد وقاتل من بالقلعة قتالاً شديداً، ثم ملك القلعة بالأمان في رابع صفر وعاد إلى دمشق.

ذكر ملكه مدينة حماة

وفي شوال سنة سبع وعشرين وخمسة مائة ملك شمس الملوك مدينة حماة وهي لأتابك زنكي بن اقسنقر، وذلك أنه لما ملك قلعة بانياس أقام بدمشق إلى شهر رمضان، وسار إلى حماة في العشر الآخر منه. وكان قد بلغه أن الخليفة المسترشد بالله قد حضر إلى الموصل، فطمع في البلاد لتغير الخليفة على زنكي، فحصر حماة وقاتل من بها يوم العيد، وملك البلد في اليوم الثاني قهراً، وطلب من به الأمان فأمنهم، وحصر القلعة، واستولى عليها وعلى ما بها من الذخائر، وسار منها إلى قلعة شيزر، وبها صاحبها ابن منقذ، فحصرها ونهب بلدها. فراسله صاحبها وسار معه بهال، فعاد إلى دمشق في ذي القعدة من السنة.

وفي تاسع شهر ربيع الآخر وثب على شمس الملوك بعض ممالك
جده طغديكين، فضربه بسيف فلم يصنع فيه شيئا، وتكاثر عليه ممالك
شمس الدولة فمسكوه، فقرره ما الذي حمله على ما فعل، فقال: « أردت
راحة المسلمين من شرك وظلمك»، فلم يزل يضرب حتى أقر على جماعة
أنهم وضعوه على ذلك، فقتلهم من غير تحقيق، وقتل أخاه سونج، فعظم
ذلك على الناس، ونفروا عنه وأنفوه.

ذكر ملكه شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسة سار إلى شقيف تيرون وهو في الجبل
المطل على بيروت وصيدا، وكان في يد الضحاك بن جندل رئيس وادي
التيم قد تغلب عليه وامتنع به واحتمى على المسلمين والفرنج، فسار
إليه وملكه في المحرم من هذه السنة، فعظم أخذه على الفرنج، لأن
الضحاك كان لا يتعرض إلى شيء من بلادهم المجاورة له، فجمع الفرنج
جموعهم فساروا إلى بلد حوران يخربون أمهات الضياع. فسار إليهم ونزل
بإزائهم وجرت بينهم مناوشة عدة أيام، ثم نهض ببعض عسكره وجعل
بقيتهم قبالة الفرنج. وسار وقصد بلاد طبرية والناصرية وعكا وما جاورها
من البلاد، والفرنج لا يشعرون به، فقتل وخرب وأحرق وسبى وامتلأت
أيدي المسلمين من الغنائم، فبلغ الفرنج خبره، فرجعوا إلى بلادهم، وعاد
هو على غير الطريق الذي سلكه، فوصل سالما وراسله الفرنج في تجديد
الهدنة.

ذكر مقتل شمس الملوك وملك أخيه شهاب الدين

محمود

وفي شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وخمسة، قتل شمس الملوك
إسماعيل . وسبب ذلك أنه كان قد ركب طريقا شنيعا من الظلم

ومصادرات العمال وغيرهم من أهل البلد وأعيانه، وبالغ في العقوبات، وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس. ثم ظهر عنه أنه كاتب عماد الدين زنكي ليسلم إليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول، وأخلى المدينة من الذخائر والأموال، ونقل ذلك إلى صرخد وتابع الرسل إلى زنكي يحثه على الوصول ويقول: إن أهملت المجيء سلمت البلد إلى الفرنج. فامتعض أصحاب أبيه وجده منه، وذكروا الحال لوالدته فساءها وأشفقت منه ووعدهم بالراحة من هذا الأمر، ثم ارتقت غفلة غلمانها وأمرت غلمانها بقتله فقتلوه. وأمرت بإلقائه في موضع من الدار ليشاهده غلمانها، فلما رأوه سروا بمقتله. وأمّه زمرد خاتون ابنة جاولي، وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلّة على وادي الشقراء، ونهر بردى. هذا أحد ما قيل في قتله.

وقيل كان سبب مقتله أن والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز، وكان متمكنا منه حاكما في دولته ثم دولة ولده هذا، فاتهم بأمر شمس الملوك، وبلغه الخبر فهم بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر، وتحصن بها وأظهر الطاعة لشمس الملوك، وأراد (شمس الملوك)، قتل أمه، فبلغها الخبر فقتلته خوفا على نفسها، والله أعلم.

وكان مولده في سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسةائة، فتكون مدة حياته اثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر، ومدة ملكه سنتين وتسعة أشهر وأياما.

ذكر أخبار شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري

ابن طغديكين

ملك دمشق بعد مقتل أخيه شمس الملوك في شهر ربيع الأول سنة

تسع وعشرين وخمسمائة، وحلف له الناس واستقر له الأمر ثم وصل أتابك زنكي إلى دمشق ونازلها في أول جمادى الأولى من السنة، فبينما هو يحاصرها إذ ورد عليه رسول الخليفة المسترشد بالله بالخلع ويأمره بصلح صاحب دمشق والرحيل عنها، فصالحه، وخطب له بدمشق مع صاحبها، وفارق البلد لليلتين بقيتا من الشهر.

ذكر ملكه مدينة حمص

وفي الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وخمسمائة، تسلم شهاب الدين محمود مدينة حمص وقلعتها. وذلك أن أصحابها أولاد الأمير خيرخان بن قراجا الوالي عليها من قبلهم ضجروا من كثرة تعرض عسكري إليها وإلى أعمالها، وتضييقهم على من بها، فراسلوا شهاب الدين في تسليمها، فأجابهم، وسار إليها وتسلمها، وسلم إليهم تدمر، وأقطع حمص لمملوك جده معين الدين أنر، وجعل فيها نائباً عنه ممن يثق به من أعيان أصحابه، وعاد إلى دمشق ثم ملكها أتابك زنكي في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتزوج زمرد خاتون والدة شهاب الدين لتحكمها بدمشق، وظن أنه يملك البلد باتصاله بها، فلم يتهياً له ملكها.

قال: واستمر ملك شهاب الدين محمود إلى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، فقتل على فراشه في شوال منها، قتله ثلاثة من خواصه كانوا يبيتون عنده فقتلوه ليلاً، وخرجوا من القلعة فنجا أحدهما وقتل الآخران.

ذكر ملك جمال الدين محمد ابن تاج الملوك بوري بن طغديكين

ملك دمشق بعد مقتل أخيه شهاب الدين محمود في شوال سنة ثلاثين وخمسمائة. وذلك أن محمود لما قتل، كتب معين الدين أنر إلى جمال الدين صاحب بعلبك بالخبر، واستدعاه ليملكه البلد، فجاء مسرعاً

لمحاصرة دمشق فقاتله أهلها، فرحل عنهم، ثم اتفق قتل عماد الدين زنكي في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فسار مجير الدين ابق إلى بعلبك وحصرها وبها نجم الدين أيوب، فخاف أن أولاد زنكي لا يمكنهم إنجاده في عاجل الحال، فصالحه وسلم القلعة إليه، وأخذ منه إقطاعا ومالا، وملكه عدة قرى من بلد دمشق. وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق وسكنها، وأقام بها، واستمرت دمشق بيد مجير الدين إلى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكي في سنة تسع وأربعين وخمسمائة على ما ذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

ولما ملكها (نور الدين) تحصن مجير الدين بالقلعة، فراسله في تسليمها وبذل له إقطاعا من جملته مدينة حمص، فأجاب إلى ذلك، وسلم القلعة وتسلم الإقطاع، وسار إلى حمص. ثم راسل أهل دمشق بعد ذلك على أن يسلموها إليه. فعلم نور الدين به، وأخذ منه حمص وعوضه عنها بالس فلم يرض بها، وسار إلى بغداد وابتنى بها دارا بالقرب من النظامية. وتوفي بها.

هذا ما كان من أخبار ملوك دمشق على سبيل الاختصار، وإنما أوردنا أخبارهم في هذا الموضع على سبيل الاستطراد، و لكي تكون أخبارهم متتابعة. فلنرجع إلى أخبار الملوك السلجقية، ولنذكر ملوك الروم منهم.

وجلس لعزاء أخيه، وحلف الجند وفوض أمر دولته إلى معين الدين أنر، وزاده في علو مرتبته، وأقطعه بعلبك، وزوجه بأمه.

قال: ولما إتصل بزمرد خاتون قتل ابنها محمود كتبت إلى زوجها أتابك زنكي وهو بالجزيرة أن ينهض في طلب ثار ابنها، فسار مسرعا وملك بعلبك عنوة في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين، وحصر دمشق في سنة أربع وثلاثين، وبذل لمعين الدين حمص وبعلمك وغير ذلك على أن يسلم إليه دمشق فلم يوافق، فجدد في الحصار. فبينما هو يحاصرها مرض جمال الدين محمد ومات في ثامن شعبان منها، فطمع زنكي حينئذ في البلد ووالى الزحف والقتال. قال: ولما مات جمال الدين ولي بعده ولده.

ذكر أخبار مجير الدين ابق بن جمال الدين محمد بن بوري بن طغديكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسةائة، وهي إذ ذاك محاصرة، فقام بتدبير دولته معين الدين مدبر دولة أبيه. وداوم زنكي الحصار وضيق على أهل البلد، فعند ذلك راسل أنر الفرنج واستدعاهم لنصرته، وإعانتته على حرب زنكي، وبذل لهم بدولا من جملتها أن يحاصر بانياس ويسلمها إليهم. وخوفهم أن زنكي إن ملك دمشق قصدهم وغزاهم، فاجتمعوا وعزموا على المسير إلى دمشق، فاتصل ذلك بزنكي فتوجه إلى حوران وقصد غزو الفرنج وذلك في منتصف شهر رمضان، فبلغ خبره الفرنج فأقاموا ببلادهم، فعاد إلى حصار دمشق ثم نزل بعذرا في سادس شوال، وأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة، وعاد إلى بلاده.

ووصل الفرنج إلى دمشق في ميعاد أنر، بعد رحيل زنكي فسار معهم إلى بانياس وحصرها وأخذها وسلمها للفرنج، ولما فعل ذلك عاد زنكي

ذكر أخبار ملوك السلجقية أصحاب قونية واقصرا وملطية ودقوقا من الروم

أول من ملك منهم شهاب الدولة قتلмыш بن أرسلان يبغو بن سلجق. وكان ابتداء أمره أنه عصى على السلطان طغرل بك في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، وملك قلعة كردكوه وامتنع بها، وأخذ أموالا كانت حملت من خوارزم إلى السلطان، فسير إليه طغرل بك جيشا فهزمه مرة بعد أخرى، فلما مات طغرل بك أظهر العصيان على ألب أرسلان ابن جفريبيك داود، وجمع جموعا كثيرة، وقصد الري ليستولي عليها عندما بلغه وفاة طغرل بك، فسار إليه السلطان ألب أرسلان والتقوا واقتتلوا فانهمز عسكر قتلмыш، وفر هو لقصد كردكوه، فوجد ميتا غير مقتول، كما ذكرنا في أخبار ألب أرسلان في سنة ست وخمسين وأربعمائة ولما مات ملك بعده ابنه سليمان.

ذكر أخبار الملك سليمان ابن شهاب الدولة قتلмыш

وهو الثاني من الملوك السلجقية بالروم، ملك ما كان بيد أبيه بعد وفاته في سنة ست وخمسين وأربعمائة.

ذكر فتح مدينة أنطاكية

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سار سليمان من بلاده، وقصد الشام وملك مدينة أنطاكية، وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. وكان سبب ملكه إياها أن صاحبها الفردوس الرومي كان قد سار عنها إلى بلاد الروم، ورتب في أنطاكية شحنة وكان الفردوس كثير الإساءة إلى أهل البلد وإلى جنده، حتى أنه حبس ابنه، فاتفق ابنه والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان، فكاتبوه يستدعونه فركب في البحر ومعه ثلاثمائة فرس وكثير من الرجالة، وخرج منه وسار في جبال وعرة

ومضايق شديدة حتى وصل إليها في وقت الموعد، فنصب السلايم وصعد باتفاق من الشحنة وابن صاحبها، فملكها في شعبان من السنة، وقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى، وقتل كثيرا منهم، ثم عفا عنهم، وتسلم القلعة وأخذ من الأموال مالا يخصى كثرة، وأحسن إلى الرعية وعدل فيهم، وأرسل إلى السلطان ملكشاه يشره بالفتح فأظهر الفرح بذلك وهنا الناس.

قال: ولما فتحها أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش، صاحب حلب، يطلب منه حمل ماكان صاحب أنطاكية يجمله إليه، ويخوفه معصية السلطان، فأجابه أن صاحب أنطاكية كان كافرا يحمل الجزية عن رأسه وأصحابه، وأنا مسلم والخطبة والسكة في بلادي للسلطان، وهذا الفتح إنما فتحته بسعاده وكاتبته به، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية، ونهب سليمان بلد حلب، فلقية أهل السواد، فشكوا إليه من نهب عسكره. فقال لهم: أنا كنت أشد كراهة لما جرى، ولكن صاحبكم أحوجني إلى ما فعلت، فلم تجر عادتي بنهب مال مسلم، ولا أخذ ما حرمة الشريعة، وأمر أصحابه بإعادة ما نهب على أصحابه، فأعادوه. ثم جمع شرف الدولة الجموع وسار لقتال سليمان، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم عسكر شرف الدولة وقتل هو، وذلك في يوم الجمعة لست بقين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

ذكر مقتل الملك سليمان بن قتلش

قال: ولما قتل سليمان بن قتلش شرف الدولة، أرسل إلى مقدم حلب يطلب تسليمها له، فأنفذ إليه مالا، واستمهله إلى أن يكتب السلطان ملكشاه. وأرسل المقدم إلى تتش صاحب دمشق يعده بتسليمها إليه، فسار تتش إلى حلب. فعلم سليمان بذلك، فاسر نحوه والتقوا وقاتلوا، فانهزم أصحاب سليمان وثبت هو في القلب. فلما عاين الهلكة، قتل نفسه

بسكين، وقيل بل قتل في المعركة، واستولى تتش على معسكره، وذلك في سنة تسع وسبعين وأربعمائة. وكان سليمان قد أرسل جثة شرف الدولة مسلم في صفر سنة ثمان وسبعين على بغل، ملفوفة في إزار إلى حلب، وطلب من أهلها تسليمها إليه، فأرسل تتش جثة سليمان في صفر من السنة التي تليها على تلك الهيئة، وطلب منهم تسليمها. ولما قتل ملك بعده ببلاد الروم ولده والله أعلم.

ذكر أخبار قلج أرسلان بن سليمان

وهو الثالث من الملوك السلجقية بالروم.

ملك بعد قتل أبيه في صفر سنة تسع وسبعين وأربعمائة، واستمر في المملكة الرومية وملك الموصل في سنة خمسائة. وذلك أن صاحبها جكرمش كان قد حاصره جاوي سقاوا، وأسرهم ومات في أسره. فكتب أصحاب جكرمش إلى الأمير صدقة، وإلى قسيم الدولة اقسنقر البرسقي، وإلى قلج أرسلان، يستدعون كل واحد منهم إليها، ليسلموا إليه الموصل، فامتنع صدقة، وسار قلج أرسلان. فلما وصل إلى نصيبين رحل جاوي عن الموصل، واتفق وصول البرسقي وهو شحنة بغداد إلى الموصل، ونزل بالجانب الشرقي بعد رحيل جاوي وفي ظنه أنه يملك البلد، فلم يخرج إليه أحد من أهلها ولا راسلوه بكلمة واحدة، فعاد في بقية يومه. وأرسل أصحاب جكرمش وأهل الموصل إلى قلج أرسلان واستحلفوه لهم، فحلف، وحلفهم على الطاعة له والمناصحة، وسار إلى الموصل وملكها لخمس بقين من شهر رجب سنة خمسائة، وأسقط خطبة السلطان وخطب لنفسه بعد الخليفة، وأحسن إلى العسكر وخلع على ولد جكرمش وأخذ القلعة من غزغلي مملوك جكرمش، وجعل عليها دزدارا، ورفع الرسوم المحدثه في الظلم، ونشر العدل وتألف الناس، وقال: من سعى إليّ بأحد قتلته، فلم يسع إليه أحد بأحد.

ذكر قتل الملك قلعج أرسلان وملك ولده الملك مسعود

كان مقتله في العشرين من ذي القعدة من سنة خمسماية. وذلك أنه لما فارق جاولي الموصل، سار إلى الرحبة وملكها بعد حصار وقتال، فلما أحكم الملك قلعج أمر الموصل، سار عنها لقتال جاولي، وجعل ابنه ملكشاه في دار الإمارة بالموصل، وسنه إحدى عشرة سنة، وجعل معه أميرا يدبره وجماعة من العسكر، وكانت عدة عسكره أربعة آلاف فارس بالعدد الكاملة والخيل الجيدة. فسمع عسكره بقوة جاولي وكثرة أتباعه وجنده، فاختلفوا، فكان أول من خالف عليه إبراهيم بن ينال صاحب آمد، وكان معه لما فتح الموصل. ففارق خيامه وأثقاله وعاد من الخابور إلى بلده ثم فارقه غيره، فعمل قلعج في المطاولة لما بلغه من قوة جاولي وكثرة جموعه، وأرسل في طلب عساكره من الروم. وكان في جملة عسكر جاولي الملك رضوان صاحب حلب، فاغتنم جاولي قلة أصحاب قلعج فقاتله قبل وصول عسكره، واقتتلوا قتالا شديدا، فحمل قلعج بنفسه وانهمز أصحابه. فلما رأى قلعج انهزام عسكره ألقى نفسه في الخابور، وحمى نفسه بالنشاب، فانحدر به الفرس إلى ماء عميق، وغرق، فظهر بعد أيام، فدفن بالسليمانية وهي قرية من قرى الخابور، وسار جاولي ودخل الموصل وأرسل ملكشاه بن قلعج إلى السلطان محمد.

قال: وملك بعده ولده الملك مسعود بن قلعج، وأقام في الملك إلى سنة إحدى وخمسين وخمسماية، فتوفي فيها. ولم أقف من أخباره على شيء أورده له، وملك بعده ولده.

ذكر أخبار الملك عز الدين قلعج أرسلان بن مسعود

ابن قلعج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш بن أرسلان
يبلغو ابن سلجق، وهو الخامس من الملوك السلجقة ببلاد
الروم

ملك بعد وفاة والده في سنة إحدى وخمسين وخمسة مائة. وكان ذا
سياسة، وعدل وافر، وهيبة عظيمة، وله غزوات كثيرة إلى بلاد الروم. وكان
له من بلاد الروم قونية وأعمالها وأقصر وسيواس وملطية وغير ذلك. وكان
له عدة أولاد، فلما كبرت سنه فرق بلاده على أولاده في حياته، وملك
نحو تسع وعشرين سنة.

ذكر تسليمه البلاد لبنيه وبني أخيه وما جعل لكل منهم

قال المؤرخ: لما ضعف الملك عز الدين قلعج أرسلان هذا عن القيام
بوظائف الملك لكبر سنه، أفرد البلاد لأولاده وأولاد أخيه وسلم لكل
واحد منهم جهة، فسلم إلى ابنه ركن الدين سليمان دوقاط، وإلى ابنه
غياث الدين كيخسرو قونية، ولولده محيي الدين أنقرة - وتسمى
أنكورية - ولولده معز الدين قيصر شاه ملطية، ولولده مغيث الدين
طغرل شاه أبلستين، ولولده نور الدين محمود قيسارية، ولولده قطب
الدين سيواس وأقصر، ولولد أخيه نكسار، ولولد أخيه أماسيا. هذه
أمهات البلاد، ويضاف إلى كل جهة ما يجاورها. ثم ندم على ذلك وأراد
أن يجمع جميع المملكة لولده الأكبر قطب الدين، وخطب له ابنة الملك
الناصر صلاح الدين يوسف صاحب مصر ليتقوى به، فلما اتصل ذلك
ببقية أولاده امتنعوا من طاعته، وأزالوا حكمه عنهم، فكان يتردد بينهم
على سبيل الزيارة، ثم توجه إلى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب
قونية، فخرج إليه وقبل الأرض بين يديه واستبشر بقومه، واتمر بأمره،

فقال له: أريد أن أسير إلى ولدي محمود صاحب قيسارية، وأخذها منه فسار هو وولده كيخسرو، وحصرنا محمود، فمرض قلعج أرسلان، وتوفي في منتصف شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسة فساد كيخسرو إلى بلده، واستقر كل واحد منهم على ما بيده من البلاد.

ذكر قتل نور الدين محمود واستيلاء قطب الدين على قيسارية ووفاته واستيلاء ركن الدين سليمان على سائر المملكة

قال: كان قطب الدين صاحب أقصرا وسيواس إذا توجه من أحدهما إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية، ويجتمع بأخيه نور الدين محمود صاحبها، ويظهر له المودة. فاطمأن له محمود. وكان الأمير اختيار الدين حسن أحد أمراء والده يحذره عاقبة طمأننته لأخيه، فنزل قطب الدين في بعض الأحيان بظاهر قيسارية وجاء نور الدين إليه فقتله، ورمى برأسه إلى أصحابه، وتسلم البلد بعد أن امتنع من بها عليه، ثم قتل الأمير اختيار الدين حسن وكان من أكابر الأمراء الديانين، وألقاه في الطريق، فجاء كلب ليأكل من لحمه، فثار الناس وقالوا: « لاسمعا ولا طاعة هذا أمير كبير في الإسلام، وبنى مدرسة للعلم، وله صدقات دارة؛ لانتركه تأكله الكلاب»، فأمر عند ذلك بدفنه، فدفن في مدرسته. ثم مرض قطب الدين ومات، فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى سيواس، وهي تجاوره، فملكها ثم ملك قيسارية أقصرا ثم سار بعد ذلك إلى قونية، وبها أخوه غياث الدين فحصره بها. وملكها، ففارقها غياث الدين إلى الشام. ثم عاد إلى الروم وسار إلى القسطنطينية، ثم ملك البلاد على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وسار ركن الدين بعد ذلك إلى نكسار وأماسيا فملكها من ابني عمه، وملك ملطية في شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسة، وفارقها أخوه

معز الدين قيصر شاه، وسار إلى الملك العادل جميع البلاد التي كانت بيد إخوته وأولاد عمه إلا أنقره، فإنها امتنعت عليه لخصانتها، فجعل عليها من عسكره من يحصرها، فحوصرت ثلاث سنين كوامل وتسلمها في سنة ستمائة، وعوض أخاه محيي الدين عنها قلعة في أطراف بلاده، وحلف له عليها، فسار محيي الدين إليها فجهز في إثره من قتله.

ذكر وفاة ركن الدين سليمان وملك ولده قلعج أرسلان

قال: ولما غدر بأخيه محيي الدين صاحب أنكورية وقتله، لم يمهلها الله عز وجل، فمرض بالقولنج، بعد قتله لخمسة أيام، ومات في سبعة أيام، وكانت وفاته في سادس ذي القعدة سنة ستمائة وكان قيما بأمر الملك، شديدا على الأعداء، إلا أن الناس كانوا ينسبونه إلى فساد في اعتقاده، وأنه يقول بقول الفلاسفة. وكان كل من رمي بهذا المذهب يأوي إليه، لكنه كان يستر ذلك عن الناس، ولا يتظاهر به.

قال: ولما مات اجتمع الناس بعده على ولده قلعج أرسلان، وملكوه عليهم وكان صغير السن، فبقى إلى بعض سنة إحدى وستمائة.

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو بن قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان بن سليمان بن قلتمش بن أرسلان بينغو بن سلجق، بلاد الروم من ابن أخيه، وهو الثاني من ملوك السلجقية بالروم

ملك المملكة الرومية في شهر رجب، سنة إحدى وستمائة. وذلك أن ركن الدين سليمان لما أخذ منه قونية، كما قدمناه، قصد الشام إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، فلم يجد عنده قبولا، فسار من عنده وتنقل في البلاد إلى أن سار إلى القسطنطينية، فأحسن إليه ملك الروم وأكرمه وأقطعه إقطاعا، فأقام عنده وتزوج بابنة بعض

البطارقة الأكابر. وكان للبطريق قلعة من قلاع القيسطنطينية ، فلما ملك الفرنج قسطنطينية، هرب غياث الدين إلى (حموه) ، بالقلعة ، فنزل عنده وقاسمه فيما هو فيه وقنعا بها فلما مات أخوه في سنة ستمائة كما ذكرناه، ومملك ولده قلعج أرسلان ، فخالف عليه بعض الأمراء والأكابر وكان من الترك، فأنف أن يملك صغيرا، فراسل غياث الدين فحضر إليه في جمادى الأولى، واجتمع معه بعض العسكر وتوجه إلى قونية وبها قلعج أرسلان ابن أخيه، فخرج له بعض عسكرها فهزموه وبقي حيران ولا يدري ما يصنع، ولا أين يتوجه ، فقصد بلدة صغيرة من بلاد قونية يقال لها أوكرم، فقدر الله أن أهل مدينة أقصرا وثبوا على واليها، فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين، فلما وصل الخبر أهل قونية قال أهلها: نحن أولى بذلك منهم، لأنه كان حسن السيرة فينا، فنادوا باسمه ، وأخرجوا من عندهم، واستدعوه، فملك المدينة وقبض على ابن أخيه، ومملك البلاد أجمع في ساعة واحدة، فسبحان من إذا أراد أمراً هياً أسبابه. وحضر إليه أخوه قيصر شاه الذي كان صاحب ملطية، فلم يجد عنده قبولا، فأعطاه شيئا وأمره بمفارقة البلاد، فعاد إلى الرها، واستتب الملك لكيخسرو وعظم شأنه، والله أعلم.

ذكر ملكه مدينة أنطالية

وفي ثالث شعبان سنة ثلاث وستمائة ملك الملك غياث الدين كيخسرو مدينة أنطالية بالأمان، وكانت للروم. وكان قد حصرها قبل هذا التاريخ وهدم عدة أبرجة من سورها، وأشرف على فتحها عنوة، فاستنجد من بها من الروم بفرنج جزيرة قبرص، فوصل إليها جماعة منهم فيئس منها وفارقها وترك طائفة من أصحابه بالقرب منها في الجبال التي بينها وبين بلاده، وأمرهم بقطع الميرة عنها، فضاق أهلها فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم، فظنوا أنهم يريدون إخراجهم من المدينة، فوقع الخلف بينهم، فأقتلوا فأرسل الروم إلى المسلمين يطلبونهم

ليتسلموا البلد، فوصلوا إليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج، فانهمز
الفرنج منهم واعتصموا بالحصن. فأرسل المسلمون يطلبون كيخسرو،
فجاء من قونية وحصر الفرنج وتسلم الحصن، واستمر غياث الدين
كيخسرو في الملك إلى أن توفي سنة سبع وستمائة وملك بعده ولده الملك
الغالب عز الدين كيكافوس بن كيخسرو، وملك كيكافوس هذا بعض
بلاد حلب، وانتزعت منه، ولم يكن له ولد فملك بعده أخوه.

ذكر ملك علاء الدين كيقباز بن غياث الدين كيخسرو
ابن قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان بن سليمان بن
قتلمش بن أرسلان بيغو بن سلجق وهو العاشر من ملوك
السلجقية بالروم

ملك بعد وفاة أخيه في سنة ست عشرة وستمائة، وكان أخوه كيكافوس
قد اعتقله لما ملك، وأشار عليه أصحابه بقتله فلم يفعل. فلما مات
كيكافوس أخرج الجند كيقباز وملكوه عليهم، وقيل إنه لما اشتدت علة
كيكافوس أخرجه من الاعتقال، وحلف له العساكر.

قال: ولما ملك كيقباز خالف عمه مغيث الدين طغرل شاه بن قلع
أرسلان صاحب أرزن الروم؛ ومغيث الدين هذا هو الذي أمر ولده أن
يتنصر وزوجه ملكة الكرج، وأقام معها مدة، فهويت غيره من مماليكها
فراه معها، فأنكر ذلك عليها، فاعتقلته، ومات مغيث الدين هذا في سنة
اثنين وعشرين وستمائة، وملك بعده ابنه.

قال: ولما ملك كيقباز خاف من الروم المجاورين لبلاده، فأرسل إلى
الملك الأشرف صاحب دمشق وصالحه، وتعاهد على المصافاة والتعاقد،
والله أعلم.

وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة في شعبان سار كيقباز إلى بلاد الملك

المسعود صاحب آمد، وملك عدة من حصونه. وكان صاحب آمد قد اتفق مع السلطان جلال الدين خوارزم شاه على مخالفة الأشرف صاحب دمشق، فأرسل الأشرف إلى كيقباد بقصد آمد، فسار وفتح حصن منصور وحصن شمشكازاد وغيرهما، فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الملك الأشرف، وعاد إلى موافقته. فأرسل الأشرف إلى كيقباد يعرفه الصلح وأن يعيد إلى صاحب آمد ما أخذه، فامتنع وقال: ما أنا نائب الأشرف يأمرني وينهاني، فأمر الأشرف عساكره بمساعدة صاحب آمد إن أصر ملك الروم على قصد محاصرته. فاجتمع العسكر الأشرفي مع صاحب آمد وساروا إلى كيقباد وهو يحاصر قلعة الكختا، فالتقوا في شوال فانهزم صاحب آمد ومن معه هزيمة عظيمة، وأسر كثير من أصحابه، وجرح، وملك كيقباد قلعة الكختا.

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة ملك كيقباد أرزنكان، وكان صاحبها بهرام شاه قد طال ملكه بها، وجاوز ستين سنة، ولم يزل في طاعة السلجقية ملوك الروم، فلما توفي ملك بعده ولده علاء الدين داود شاه، فأرسل إليه كيقباد يطلبه بعسكره يسير معه إلى مدينة أرزن الروم ليحاصرها، فحضر إليه فقبض عليه وأخذ مدينته، ثم ملك حصن كماخ، وكان من أمنع الحصون. وقصد أرزن الروم ليأخذها من ابن عمه طغرل شاه، فاستنجد صاحبها بالأمير حسام الدين علي نائب الأشرف بخلاط، وأظهر طاعة الأشرف، فسار إليه بمن عنده من العسكر خوفاً أن كيقباد إذا ملك أرزن الروم قصد خلاط وغيرها، فعاد ولم يقدم على قصدها، وتوجه إلى مدينة أنطاكية ليشتو بها والله أعلم.

ذكر اجتماع كيقباد والأشرف على حرب جلال الدين خوارزم شاه وانهزامه منها

كان سبب ذلك أن جلال الدين خوارزم شاه لما حاصر خلاط حضر

إليه صاحب أرزن الروم، وهو طغرل شاه السلجوقي ابن عم كيقباز، وأطاعه وأعاناه على الحصار، وكان بينه وبين ابن عمه عداوة مستحكمة فخاف كيقباز أن السلطان جلال الدين يتوصل إلى ملك بلاده، فراسل الملك الكامل صاحب مصر وهو إذ ذاك بحران، وسأله أن يستدعي الملك الأشرف من دمشق، فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف واجتمع هو وكيقباز، واتفقا على حرب جلال الدين، وكان عسكر كيقباز عشرين ألف فارس وعسكر الأشرف خمسة آلاف فارس، إلا أنهم كانوا من الشجعان الذين لا يقوم أحد بحربهم، فسار جلال الدين لقتالهم والتقوا يوم السبت الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة بمكان من أعمال أزرنجان، فانهزم جلال الدين وعاد إلى خلاط، فأخذ من كان بها من أصحابه وفارقها، وأسر في هذه الواقعة جماعة من أصحاب السلطان. فأمر كيقباز بضرب أعناقهم، وأسر ابن عمه صاحب أرزن الروم، وقصد به بلده، فتسلم أرزن الروم وما معها من القلاع، وما بها من الخزائن وغيرها. فكان طغرل شاه كما قيل: « خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين »؛ وكان هذا قد عاهد جلال الدين على أنه يملكه بعض بلاد كيقباز، فأخذ ما بيده . واستمر كيقباز في الملك إلى أن توفي، وكانت وفاته في سنة أربع وثلاثين وستمائة، وملك بعده ولده.

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو ابن الملك علاء الدين كيقباز غياث الدين كيخسرو بن قلع أرسلان بن مسعود ابن قلع أرسلان بن سليمان بن قتلмыш بن أرسلان يينغو ابن سلجوق، وهو الحادي عشر من الملوك السلجوقية ، بالروم

ملك المملكة الرومية بعد وفاة أبيه الملك كيقباز في سنة أربع وثلاثين وستمائة، وجلس على تخت السلطنة بمدينة قونية وراسله الملوك في

الموافقة، وهي السنة التي وصل التتار فيها إلى الروم، وفي سنة خمس وثلاثين أرسل غياث الدين إلى والده الملك العزيز يحطّب بنت ابنها العزيز لنفسه، وأن يتزوج الملك الناصر صاحب حلب أخت السلطان غياث الدين، فاستقر بينهما الأمر، وعقد عقد السلطان على غازية خاتون ابنة الملك العزيز على خمسين ألف دينار، ووصل الصاحب كمال الدين ابن العديم من حلب إلى السلطان. فزوج أخته من الملك الناصر على نظير هذا الصداق. فحصل الاتفاق بينهما، ثم أرسل السلطان غياث الدين إلى حلب يطلب أن تقام له الخطبة بها وتضرب السكة باسمه، فتوقفت الصاحبة والدة العزيز في ذلك، فأشير عليها بالموافقة فأجابت إلى ذلك، وخطب له بحلب. وفي سنة إحدى وأربعين وستمائة، دخل ييجو مقدم التتار إلى بلاد الروم، والتقى هو والسلطان غياث الدين فكسروهم كيوخسرو، ثم عاودوا القتال فهزموه، وقتل جماعة من أصحابه، والتجأ إلى بعض المعقل؛ ثم حصلت المهادنة على أتاوة يؤديها غياث الدين للتتار في كل سنة.

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة وصل التتار إلى بلاد الروم صحبة جرماغون وييجو من قبل منكوقان الملك، فخرج السلطان غياث الدين لقتالهم بجميع عساكره، واستصحب حريمه ليقاتل قتال الحریم. واستشار أصحابه فيما يفعل، فكان منهم من هول عليه أمر التتار وكان غياث الدين قد زوجه والده بكرجي خاتون ابنة ملك الكرج، فلما أفضت السلطنة إليه جعل أخاها مقدا على الجيش، وكان نصرانيا، لم ينتقل عن ملته، فكرهه الأمراء وكرهوا السلطان بسببه. فلما كان في هذا الوقت قال للسلطان غياث الدين: « ضم إلي من في عسكري من الكرج والفرنج، وأنا ألقى التتار بهم ». فغاظ الأمراء كلامه، وتقدم أحد أعيانهم فحلف أنه لا بد أن يلقى التتار بنفسه، ومن صحبه، وركب في نحو عشرين ألف فارس، وتقدم إلى التتار وهم بصحراء اقشهر زنجان، وكان غياث الدين على الجبل الأقرع واسمه كوه داغ، وهو مشرف على الوطأة

التي نزل بها التتار. وسار الأمير فيمن معه، وتبعه السلطان ببقية الجيش فوجد المقدم أمامه واد قطعته السيل، فلم يستطع قطعه إلى جهة التتار. فسار مع لحف الجبل، يطلب طريقا يمكنه التوصل منه إلى التتار. فركب التتار وقصدوه ودنوا منه وراسلوه بالسهام، فأهلكوا أكثر الخيل التي معه، فكان السهم لا يقع إلا في فرس أو فارس، ففترقوا عند ذلك، وطلبوا النجاة لأنفسهم، وعاد السلطان غياث الدين إلى المخيم، وجهاز حريمه إلى قونية، وهي دار المملكة، ومسافتها من المكان الذي هو فيه نحو شهر، فسرن صحبة أمير، ولم يحملن معهن إلا ما خف، ورجع السلطان وترك الوطاق والدهاليز والخيام منصوبة، وبها الأثقال والخزائن والذخائر. وأقام التتار ثلاثة أيام لم يقدموا على دخول الوطاق ظنا منهم أنها مكيدة، ثم عبروا الوطاق واستولوا على ما فيه، ورجعوا.

وتوفي غياث الدين في هذه السنة، وخلف ثلاثة أولاد: عز الدين كيكائوس، وركن الدين قلع أرسلان، وعلاء الدين كيقباز.

ذكر أحوال أولاد السلطان غياث الدين كيخسرو بعد وفاة أبيهم

قال: لما توفي غياث الدين استقر أولاده الثلاثة في السلطنة، ولم ينفرد بها أحد عن الآخر، وضربت السكة باسمهم جميعا، وخطب لهم وكان والدهم قد جعل ولاية العهد لولده علاء الدين كيقباز بن كرجي خاتون، فاتفقوا على أن يتوجه إلى منكوقان يطلب منه الصلح والهدنة، ويقر له أتاوة. هذا بعد أن استولى بيجو على قيسارية وأعمالها وما حولها، وصار بيده من المملكة الرومية مسافة شهر.

قال: فتوجه علاء الدين كيقباز إلى منكوقان ملك التتار ومعه الهدايا والتحف، وذلك في سنة خمس وخمسين وستائة. وقصد الأردو ومعه

الأمير سيف الدين طرنطاي، وهو من أكابر الأمراء وشجاع الدين ملك السواحل. وأقام أخواه بقونية فاختلقت آراؤهما وآل أمرهما إلى القتال. فانتصر عز الدين كيكاوس واستقر بقونية بمفرده، واعتقل ركن الدين قلعج أرسلان، كل ذلك وبيجو بالروم قال: ولما اعتقل قلعج أرسلان، ضاق أصحابه ومنهم صاحب شمس الدين الطغرائي، والأمير سيف الدين جاليش وغيرهم، ففكروا فيما يفعلون فزوروا كتابا عن السلطان عز الدين كيكاوس إلى سيف الدين طرنطاي ورفيقه، أن يسلم إليهم السلطان علاء الدين كيقباد، وما معها من الهدايا والتحف، ليتوجه صاحب بذلك إلى منكوقان، ويعود طرنطاي ورفيقه إلى قونية. وساورا بهذه الكتب الموضوعة في إثر السلطان كيقباد، فلحقوه وقد وصل إلى أردوباطو فدخلوا على باطو وقالوا: « إن السلطان عز الدين كان قد أرسل أخاه ليتوجه إلى القان وأرسل معه هذين - يعنون طرنطاي ورفيقه. ثم اتضح له أنها قد أضمرنا السوء، وأن طرنطاي ضربته صاعقة فيما مضى من الزمان، فلا يصلح أن يدخل بين يدي القان. ورفيقه شجاع الدين طيبب ساحر، وقد أخذ صحبته شيئا من السم القاتل ليغتال به منكوقان، فأرسلنا عوضا عنها وأمرنا بردهما» فلما سمع باطو ما قاله صاحب، أمر بإحضار طرنطاي ورفيقه وفتش ما معها من القماش والأصناف، فكان فيه براني أشربة وعقاقير، من جملتها السقمونيا، فأمره أن يأكل من ذلك فأكل وامتنع من السقمونيا. فظنها باطوسما، واستدعى الأطباء فقالوا إنها من الأدوية، وآخر الأمر أن باطو خير صاحب ورفيقته بين أن يستصحبوا الهدايا إلى القان، ويكون السلطان صحبة طرنطاي ورفيقه أو العكس. فاختار صاحب أن يكون السلطان معه والهدايا مع طرنطاي، وافترقا على ذلك. وتوجه السلطان كيقباد والصاحب إلى القان، وتوجه طرنطاي ورفيقه بالهدايا إليه، وافترقوا في الطريق، فكل قصد جهة، واتفقت وفاة السلطان في طريقه، وجرت لهم خطوط يطول شرحها، آخرها أنهم وصلوا إلى القان بالأردو وتنافسوا

الرياسة في مجلسه، ثم اتفق الحال أن تكون مملكة الروم مقسومة بين الأخوين، فجعل لعز الدين كيكاوس من نهر سيواس إلى حد بلاد اشكري، ولركن الدين قلع أرسلان من نهر سيواس إلى تخوم أرزن الروم من الجهة الشمالية المتصلة ببلاد التتار. واستقر عليها اتاوة يحملونها إلى الأردو، وعاد الصاحب شمس الدين وطرنطاي ورفقتها من عنده، فما وصلوا إلى الروم حتى دخلة التتار، وكان بينهم وبين السلطان عز الدين ما نذكره إن شاء الله في أخبار التتار.

قال: ووصل الصاحب ورفقته إلى الروم

في سنة سبع وخمسين وستائة، واستقرت القسمة بين الأخوين على ما قرره منكوقان، وانفرد كل منهما بما استقر له، وانضم إليه جماعة من الأمراء. ثم قدم هولاکو وملك بغداد، فاستدعاهما فسارا إليه، وحضرا معه أخذ حلب، ثم عادا إلى بلادهما على القسمة التي قسمها منكوقان، فلما كان في سنة ستين وستائة بعث هولاکو يستدعي شمس الدين بوتاش نائب السلطان عز الدين، فأرسله إليه فوصل إلى أرزنكان صحبة رسل هولاکو. فوافق وصورهم إليها عند غطاس النصاري، فخلدوا إلى الفرات بجمع كثير، ومعهم الجائليق وقد رفعوا الصلبان على الرماح، وأعلنوا بالنواقيس والصياح، فأنكر عليهم شمس الدين، وقصد منعهم، فمنعه رسل هولاکو، وقالوا: « هذه بلاد السلطان ركن الدين فلا يحدث فيها »، وسألوا الجائليق: « كيف كان عادتكم في أيام السلطان غياث الدين؟ » فقال: « كنا نحمل له ثلاثة آلاف درهم، ونعمل ما نختار » فأخذوا منه ثلاثة آلاف درهم ومكنوه من عمل العيد كما أراد، فلما جرت هذه المفاوضات بين رسل هولاکو وشمس الدين، عاد مغضبا ورجع إلى السلطان عز الدين، وحمله على المخالفة والعصيان، فوافق على ذلك واستولى على أكثر بلاد أخيه ركن الدين. فتوجه ركن الدين إلى هولاکو واستنصر به، فبعث معه تومانا^(٢) من التتار، فكسرهم عز الدين، ثم

استمدوا هولاء، فأمدهم بتومان آخر، فهرب عز الدين وفارق البلاد ودخل إلى الأشكري بالقسطنطينية، وصحبه أخواله، وهما على دين النصرانية، وثلاثة نفر من أمراءه. واستولى ركن الدين على جميع البلاد واستقل بملكها.

وأما عز الدين فإنه لما وصل إلى الأشكري أكرمه وأحسن إليه، فأقام عنده إلى سنة اثنتين وستين وستمائة، فقصد الأمراء الذين كانوا معه وهم عز الدين أمير آخر، وعلي بعاذر، وأمير مجلس، أن يشبوا على الأشكري فيقتلوه، وأعلموا صاحبهم عز الدين بذلك. وقالوا له: « اكنمه عن خالك » فلم يكنمه عنهما، وأعلمهما به، وأمرهما أن يعرفا الأشكري بذلك، وأنه لا يركب في اليوم الذي قصد الأمراء الفتك به فيه. فعرفاه، فقبض على الأمراء وكحلهم، وقبض على السلطان عز الدين واعتقله بقلعة من القلاع الغربية، فأقام بها إلى سنة ثمان وستين وستمائة. وجمع الأشكري أصحاب الأمراء وأتباعهم، وعرض عليهم الدخول في دينه. فمن وافق تركه ومن أبى كحله. فمنهم من وافق وتنصر، ومنهم من امتنع فكحل، وعرض على رجل منهم أن يتنصر فصاح وقال: « الجنة معدة للإسلام، والنار معدة لكم » فقال: هذا رجل ثابت على دينه وأطلقه، وكتب له ورقة للطريق.

وفي سنة ثمان وستين وستمائة خلص السلطان عز الدين وأهله من الاعتقال، وسبب ذلك أن منكوتر بن طغان جهز عسكرياً إلى اسطنبول، فأغاروا عليها، وأخذوا عز الدين من القلعة التي كان بها، وأحضره إلى منكوتر، فأكرمه وأحسن إليه وأقام ببلاد قرم، وتزوج بها، واستمر إلى أن توفي في سنة سبع وسبعين وستمائة.

ذكر قتل السلطان ركن الدين قلعج أرسلان وولاية ابنه غياث الدين كيخسرو

وفي سنة ست وستين وستمائة دبر البرواناه على السلطان ركن الدين،
واتفق مع التتار الذين عنده على قتله ليتمكن من البلاد. فعمل وليمة
واجتمع فيها التتار، واستدعوا السلطان فحضر إليهم وأكل وشرب،
فقاموا إليه وخنقوه بوتر، فمات، واستقر في الملك بعده ولده السلطان
غياث الدين كيخسرو، وله من العمر أربع سنين، واستولى البرواناه على
الحكم في المملكة الرومية، والله أعلم.

ذكر خبر البرواناه معين الدين سليمان وأصله وتنقله

أما أصله فمن الديلم. وكان والده مهذب الدين علي، حضر وهو
شاب في أيام السلطان علاء الدين كيقباز إلى سعد الدين المستوفي
بالروم، وهو إذ ذاك نافذ الحكم، فسأله أن يجري عليه جاريا في بعض
المدارس، يكون درهما في اليوم، يقات به. وكان شابا جميلا وسيما من
طلبة العلم، فمال إليه المستوفي فقال: أريد أن أتخذك ولدا، وأخذه وقربه
وأدناه وأحسن إليه، وزوجه بابنته ثم اتفقت وفاة المستوفي، فوصف
مهذب الدين للسلطان علاء الدين بالكفاية والمعرفة والفضيلة، فقربه
منه، وترشح للوزارة واستوزره وألقى إليه مقاليد الدولة، ورزق مهذب
الدين ولده معين الدين سليمان المسمى بالبرواناه.

وتقدم معين الدين في الدولة السلجوقية إلى أن استولى على الجبل
والعقد، ولم يكن للسلطان غياث الدين كيخسرو هذا معه في السلطنة
غير الاسم. ومعين الدين هذا هو والد الأمير علاء الدين علي بن
البرواناه، أحد أمراء الدولة الناصرية^(٣). وولي القاهرة، ثم ولي نيابة دار
العدل الشريف، وتقدم على الجيوش، قال: واستمر غياث الدين

كيخسرو في اسم السلطنة بالروم إلى أيام السلطان أحمد في سنة إحدى
وثمانين وستمائة، فاستدعاه إلى الأردن، وعزله عن السلطنة، ورسوم له
بالإقامة بأرزنكان، فأقام بها إلى سنة اثنين وثمانين وستمائة. فدرس عليه
أرغون بن أبغا من خنقه بوترفمات ولما عزل غياث الدين فوض السلطان
أحمد السلطنة في الروم إلى السلطان مسعود ابن السلطان غياث الدين
كيكاوس ابن السلطان غياث الدين كيوخسرو ابن السلطان علاء الدين
كيقباد ابن السلطان غياث الدين كيوخسرو ابن السلطان عز الدين قلعج
أرسلان ابن الملك مسعود ابن الملك قلعج أرسلان ابن الملك سليمان ابن
الملك شهاب الدولة قتلмыш بن رسلان ييغو بن سلجق ملك المملكة
الرومية، بعد عزل غياث الدين كيوخسرو ابن ركن الدين قلعج أرسلان في
أيام السلطان أحمد في سنة إحدى وثمانين وستمائة، فاستمر وليس له من
الأمر شيء إلا اسم السلطنة خاصة، والحكم في المملكة الرومية للتتار
وشحانهم.

هذا آخر ما اتصل إلينا من أخبارهم إلى حين وضعنا هذا التأليف في
سنة أربع عشرة وسبعمائة. فلنذكر أخبار الدولة الأتابكية، لأنها من فروع
الدولة السلجقية، وبتامها يتم هذا الباب إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الدولة الأتابكية

وهذه الدولة من فروع الدولة السلجقية، كان ابتداءؤها أولا بحلب في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ثم انقطعت بقتل أقسنقر مدة ثم قامت بالموصل وحلب والشام وبمصر خطبة، وقاعدة هذه الدولة وعمادها المشار إليه من ملوكها نور الدين محمود بن زنكي. ونحن نذكر أصل هذا البيت الأتابكي ونقله إلى أن ملك نور الدين الشهيد، وما انتهى إليه حال هذه الدولة إلى حين انقراضها، فنقول: أصل البيت الأتابكي أقسنقر التركي.

ذكر أخبار قسيم الدولة أقسنقر التركي

كان تركيا من أصحاب السلطان ركن الدولة ملكشاه السلجقي، وتربى معه من صغره وهو من أترابه، واستمر في صحبته حتى أفضت إليه السلطنة، فكان من أعيان أمراءه، واعتمد عليه في مهماته وزاد في علو مرتبته، فصار الوزير نظام الملك مع عظم شأنه وجلالة قدره، يتقيه ويدياره. ومما يدل على مكانته وعلو شأنه كونه لقب قسيم الدولة، مع صون الألقاب والمشاححة فيها في ذلك الوقت.

ولما ملك السلطان ملكشاه مدينة حلب كما ذكرناه في أخباره سلمها لقسيم الدولة في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة ثمانين، فعمرها وأحسن السيرة فيها فمال الناس إليه وأحبوه، ثم تسلم من الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر: اللاذقية، وأفامية، وكفر طاب، فأشار الوزير نظام الملك على السلطان ملكشاه أن يسلم ذلك إلى قسيم الدولة مع حماه ومنبج، فأقطعه السلطان جميع ذلك، فعظمت هيئته، وظهرت كفايته، وقمع أهل الفساد والبغي. ثم استدعاه السلطان إلى العراق فقدم متجملا بعسكر عظيم، فاستحسن ذلك منه وعظمه

وأعاده إلى أعماله. وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة قصد أقسنقر شيزر ونهبها وعاد إلى حلب. وفي سنة ثلاث وثمانين حاصر مدينة حمص وملكها، فسار صاحبها ابن ملاعب إلى الديار المصرية.

وفي سنة أربع وثمانين ملك حصن أفامية والرحبة، واستمر قسيم الدولة كذلك إلى أن مات السلطان ملكشاه في سنة خمس وثمانين، فجهز عند ذلك جيشا إلى تكريت فملكها، واتفق أن تاج الدولة تتش صاحب دمشق طمع بعد وفاة أخيه السلطان ملكشاه في السلطنة، فسار من دمشق إلى حلب، فلم يمكن قسيم الدولة إلا موافقته والدخول في طاعته. وكان من أمر تتش ما قدمناه في أخباره، وفارقه قسيم الدولة والتحق بالسلطان بركياروق ولد صاحبه السلطان ملك شاه كما قدمنا ذكر ذلك مبينا.

ذكر قتل قسيم الدولة

قال: ولما فارق قسيم الدولة تتش واستمر في خدمة السلطان بركياروق وعاد تتش إلى الشام، أمر بركياروق قسيم الدولة وبوزان صاحب حران بالعود إلى بلادهما ليمنعا تتش من التغلب عليها، فعادا، وجمع تتش العساكر وسار نحو حلب، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدهما السلطان بركياروق بالأمير كربوقا صاحب الموصل، فالتقوا مع تتش بالقرب من تل السلطان على ستة فراسخ من مدينة حلب. فانهمز جيش قسيم الدولة وأخذ أسيرا، فقتله تتش صبرا، ودخل بوزان وكربوقا حلب، فحصرهما تاج الدولة تتش وفتحها وأخذهما، فقتل بوزان واعتقل كربوقا، فلم يزل إلى أن خلص في أيام الملك رضوان بعد قتل تتش. وكان مقتل قسيم الدولة في سنة سبع وثمانين وأربعمائة. وكان رحمه الله حسن السيرة والسياسة كثير الإحسان إلى رعيته فكانوا في أيامه بين عدل غامر ورخص شامل وأمن واسع، رحمه الله تعالى.

ذكر أخبار عماد الدين أتابك زنكي بن قسيم الدولة أقسنقر

قال المؤرخون: لما قتل قسيم الدولة كان عمر ولده زنكي نحو عشر سنين، ولم يخلف من الذرية غيره، فاجتمع مماليك والده عليه وأصحابه. فلما خلع قوام الدين كربوقا من السجن، بعد قتل تتش في سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وملك حران ونصيبين والموصل وماردين، وعظم شأنه وهو في طاعة السلطان بركياروق، أحضر ممالك قسيم الدولة، وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكي، وقال: هو ابن أخي، وأنا أولى الناس بتربته، فأحضره إليه، وأقطعهم كربوقا الإقطاعات السنية واستعان بهم في حروبه، وسار بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان، والتقوا فهزموهم كربوقا. وهو أول مصاف حضره زنكي بعد قتل والده. ولم يزل عند كربوقا إلى أن توفي في سنة أربع وتسعين وأربعمائة. وملك بعده موسى التركماني، فقتل ولم تطل مدته. ثم ملك الموصل شمس الدولة جكرمش، وهو من ممالك السلطان ملكشاه، فاتخذ عماد الدين زنكي كالولد، فكان عنده إلى أن قتل في سنة خمسمائة. ثم ملك الموصل بعده جاولي سقاوا، فاتصل به عماد الدين، وقد كبر وظهرت شهامته. ولم يزل معه حتى عصى على السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، فأرسل السلطان الأمير مودود إلى الموصل، في سنة اثنتين وخمسمائة، وأقطعه إياها، ففارقه عماد الدين وغيره من الأمراء، والتحقوا بمودود، فأكرم زنكي وشهد حروبه، ثم سار مودود إلى الشام ففتح في طريقه قلاعاً كانت للفرنج، ثم حضر عند أتابك طغديكين صاحب دمشق وسار إلى طبرية وحاصرها، وقاتلوا قتالاً شديداً، فظهر من عماد الدين زنكي شجاعة عظيمة، منها أنه كان في نفر وخرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه فهزموهم، واستمر في حملته وهو يظن أن أصحابه يتبعونه، فتخلفوا عنه، وتقدم وحده إلى أن وصل إلى باب المدينة، وأثر رحه فيه. وقاتل الفرنج عليه وحى نفسه، وعاد سالماً، فعجب الناس من

إقدامه وسلامته. ثم عاد إلى دمشق صحبة الأمير مودود، فخرج مودود لصلاة الجمعة، فلما صلى وانصرف، فبينما هو في صحن الجامع ويده بيد طغديكين وثب عليه إنسان فضربه بسكين، فحمل إلى بيت طغديكين فمات في بقية يومه، وكان صائماً ولم يفطر، وقتل قاتله، قال: ولما قتل كتب ملك الفرنج إلى طغديكين يقول:

« إن أمة قتلت عميدها، في يوم عيدها، في بيت معبودها، حقيق على الله أن يبيدها»، ثم أقطع السلطان الموصل وغيرها بعد قتل مودود للأمير جيوش بك، وسير معه ولده الملك مسعود، كما ذكرناه، ثم جهز السلطان أقسنقر البرسقي في العساكر لقتال الفرنج، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه، فساروا وفيهم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم زنكي الشامي، فسار أقسنقر إلى الرها وإلى سميساط وبلد سروج، وقاتل الفرنج وأبلى زنكي في هذه المواقف بلاء حسناً، فعادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقي وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود، والأمير جيوش بك، إلى أن أظهر العصيان على السلطان في سنة أربع عشرة وخمسة، ثم استأمن الملك مسعود لأخيه السلطان على ما قدمنا ذكر ذلك في أخبار الدولة السلجوقية.

ذكر ابتداء حال عماد الدين زنكي وترقيه وتنقله في الولايات

كان ابتداء ولايته في سنة ست عشرة وخمسة، وذلك أن السلطان محمود أقطع الأمير أقسنقر البرسقي مدينة واسط وأعمالها، مضافاً إلى ما بيده من ولاية الموصل وشحنكية العراق وغير ذلك، فسير البرسقي إليها عماد الدين زنكي وأمره بحمايتها، فسار إليها في شعبان وقام بحمايتها أحسن قيام، وحضر مع الخليفة المسترشد بالله قتال ديبس بن صدقة

أمير الحلة. وكان لعهاد الدين في ذلك آثار حسنة ، وأقام إلى أن عزل أفسنقر البرسقي عن شحنكية العراق، ورجع إلى الموصل في سنة ثمانى عشرة وخمسمائة. وكان عماد الدين إذ ذاك بالبصرة قد سيره البرسقي لحمايتها ، فلما توجه البرسقي إلى الموصل أرسل إليه يأمره باللحاق به، فقال لأصحابه: « قد ضجرنا مما نحن فيه بالموصل، في كل يوم أمير جديد، ونحتاج نخدمه، وقد رأيت أن أسير إلى السلطان محمود فأكون معه»؛ فأشاروا عليه بذلك. فسار إلى السلطان فقدم عليه وهو بأصفهان، فأكرمه. وكان يقف عن يمين تحت السلطان إلى جانبه لا يتقدم عليه غيره، وهي منزلة والده من قبله. ثم بلغ السلطان أن العرب تجمعت ونهبت البصرة ، فأقطعها لعهاد الدين زنكي، وأعادها إليها، وهذه الولاية هي أول ولاياته من قبل السلطان، فضبط عماد الدين زنكي البصرة وأعمالها وقام فيها أحسن قيام، وكف الأيدي عنها.

فلما وقع الاختلاف بين السلطان محمود والخليفة المسترشد بالله، وحضر السلطان إلى بغداد وحصرها كما قدمنا ذكر ذلك، أرسل إلى عماد الدين زنكي وهو بواسط يأمره بالحضور بنفسه ومعه المقاتلة في السفن وعلى الدواب، ففعل ذلك وجاء في موكب عظيم في البر والبحر، فركب السلطان للقائه، ورأى الناس من ذلك ما هالهم، وعظم عماد الدين في أعينهم. ثم حصل الاتفاق بعد ذلك بين السلطان والخليفة كما ذكرنا.

ذكر ولاية عماد الدين زنكي شحنكية العراق

وفي شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وخمسمائة أسند السلطان محمود شحنكية العراق إلى الأمير عماد الدين زنكي، ومسبب ذلك أن السلطان لما عزم على المسير عن بغداد إلى همدان، نظر فيمن يصلح لشحنكية العراق ممن يأمن جانبه مع الخليفة، واعتبر أعيان دولته، فلم ير فيهم من يقوم بأعباء هذا الأمر مقامه، فاستشار أصحابه في ذلك

فكل أشار عليه به وقالوا: « لا يقدر على سد هذا الخزق ، وإعادة ناموس هذه الولاية، ولاتقوى نفس أحد على ركوب هذا الخطر، غير عماد الدين زنكي، ففوض إليه ولايتها، مضافا إلى ما بيده من الإقطاع، وكانت شحنة العراق من أعظم الولايات، وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن من جهة العراق، ولم يطل مقام زنكي ببغداد حتى انتقل إلى ولاية الموصل.

ذكر ولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها

كانت ولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة. وسبب ذلك أن أفسنقر البرسقي لما قتل على ما ذكرناه، وولي بعده ابنه مسعود في ثامن ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة، فمات مسعود في سنة إحدى وعشرين، وهو يحاصر الرحبة. فلما مات قام بعده أخ له صغير، واستولى على البلاد جاوي مملوك أبيه، ودبر أمر الصبي، وأرسل إلى السلطان يطلب تقرير أعمال الموصل على الصغير ولد أفسنقر البرسقي، وبذل الأموال الكثيرة على ذلك، وكان الرسول في ذلك القاضي بهاء الدين علي بن القاسم الشهر زوري، وصلاح الدين محمد الياغسياني أمير حاجب البرسقي، فسارا حتى حضرا دركاة السلطان ليخاطباه في ذلك، وكانا يكرهان جاوي ويخافانه، ولايرضيان بطاعته، فاجتمع صلاح الدين مع نصير الدين جقر الذي صار ينوب عن عماد الدين، فذكر له صلاح الدين ماورد فيه، وكان بينهما صهارة. فخوفه نصير الدين من جاوي، وقبح عنده طاعته، وقرر في نفسه أن جاوي إنما أبقاه لحاجته إليه، وأنه متى أجيب إلى مطلوبه لايبقي على أحد منهم، وحسن له المخاطبة في ولاية عماد الدين زنكي، وضمن له الولايات والإقطاعات الكبيرة، وكذلك للقاضي بهاء الدين، فقاما وركبا إلى دار الوزير شرف الدين أنو شروان بن خالد، واجتمعا به وقالوا له: « قد علمت وعلم السلطان أن ديار الجزيرة والشام

قد تمكن الفرنج منها، وقويت شوكتهم بها، واستولوا على أكثرها، وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردین إلى عريش مصر، ما عدا البلاد الباقية للمسلمين. وكان البرسقي بشجاعته وانقياد الجساكر إليه، يكف بعض عاديتهم وشرهم، وقد زاد طمعهم منذ قتل، وولده هذا طفل صغير، ولا بد للبلاد من رجل شهيم شجاع ذي رأي وتجربة، يذب عنها، ويحمي حوزتها. وقد أنهينا الحال لثلاثي يجرى خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين فيختص اللوم بنا، ويقال لم لا أنهيتم إلينا جلية الحال، فرفع الوزير قولها إلى السلطان فاستحسنه وشكرهما عليه، وأحضرهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية، فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكي، وبدلا عنه تقربا إلى خزانة السلطان مالا جليلا، فأجاب السلطان إلى ولايته، فأحضره وولاه جميع تلك البلاد، وكتب منشوره بها، وسار عماد الدين زنكي إليها فبدأ بالبوازيج ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره، لأنه خاف من جاوي أنه ربما يصدده عن البلاد، ثم سار عن البوازيج إلى الموصل، فلما سمع جاوي بقربه خرج إلى لقائه ومعه سائر العسكر، وترجل عند مقابلته، وقبل الأرض بين يديه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فدخلها في شهر رمضان من السنة، وأقطع جاوي الرحبة وسيره إليها، وولى نصير الدين دزدارية قلعة الموصل وجعل إليه سائر دزدارية القلاع، وجعل صلاح الدين محمد أمير حاجب، وبهاء الدين علي الشهرزوري قاضي القضاة بجميع بلاده، وزاده إقطاعا وأملاكا، وكان لا يصدر إلا عن رأيه.

فلما فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عمرو بها ممالك البرسقي، فامتنعوا عليه فحصرهم وراسلهم، وبذل لهم البذول الكثيرة على التسليم، فلما لم يجيبوا إلى ذلك جد في قتالهم وكان بينه وبين البلد دجلة، فأمر الناس بإلقاء أنفسهم في الماء، ففعلوا وعبروا سباحة وعبر بعضهم في السفن والأكلاك، وتكاثروا على أهل الجزيرة. وكانوا قد خرجوا إلى أرض بين الجزيرة ودجلة، تعرف بالزلاقة، ليمنعوا عسكر عماد

الدين، فلما رأوه قد عبر دجلة انهزموا ودخلوا البلد، وأرسلوا في طلب الأمان، فأمنهم ودخل البلد بعسكره. ثم زادت دجلة في تلك الليلة زيادة عظيمة لحقت سور البلد، وصارت الزلاقة مملوءة بالماء، فلو أقام بها عماد الدين تلك الليلة هلك هو وعسكره، ولم يسلم منهم أحد، فأيقن الناس بسعادته.

ثم سار عن الجزيرة إلى نصيبين، وكانت لحسام الدين تمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين، فلما نازها سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا فاستنجده على أتاك زنكي، فوعده النجدة بنفسه وجميع عسكره. وعاد تمرتاش إلى ماردين، وأرسل رقعة على جناح طائر إلى نصيبين، يعرف من بها من العسكر أنه وابن عمه واصلان إليهم بالعسكر الكثير لدفع زنكي عنهم، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام. فبينما أتاك زنكي في خيمته وإذا بطائر سقط على الخيمة وهو ينظر إليه، فأمر بمسكه فمسك، فرأى فيه الرقعة فقرأها، وأمر بكتب غيرها يقول: « إنني مضيت إلى ركن الدولة وقد وعدني النصر بجميع العساكر وما نتأخر عن الوصول أكثر من عشرين يوماً » وأمرهم بحفظ البلد هذه المدة، إلى أن يصلوا وجعلها على الطائر، وأرسله. فوصل إلى نصيبين فلما قرأ من بها الرقعة، سقط في أيديهم، وعلموا عجزهم عن حفظ البلد هذه المدة، فأرسلوا إلى زنكي وصالحوه وسلموا إليه البلد، فبطل على داود وتمرتاش ما كانا عزمنا عليه.

ولما ملك نصيبين سار عنها إلى سنجار، فامتنع من بها عليه ثم صالحوه وسلموها إليه، وسير منها الشحن إلى الخابور فملكه جميعه، ثم سار إلى حران وهي للمسلمين. وكانت الرها وسروج والبيرة وتلك النواحي جميعها للفرنج، وأهل حران معهم في ضر عظيم، وضيق شديد، لخلو تلك البلاد من حامي يذب عنها. فلما قاربها خرج أهل البلد إلى لقاءه، وسلموها إليه، فأرسل إلى جوسلين صاحب الرها، وتلك البلاد

وهادنه مدة يسيرة، وكان غرضه أن يتفرغ لإصلاح البلد، ويحشد، ويملك حلب والشام، ثم يقاتل الفرنج.

ذكر ملك عماد الدين حلب

وفي المحرم سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، ملك عماد الدين زنكي حلب وقلعتها. وسبب ذلك أنها كانت بيد تومان نيابة عن عز الدين مسعود بن آقسنقر البرسقي. ثم استتاب بعده قتلغ فوصل إليها بعد وفاة مسعود، وتسلمها. ثم ثار به أهل المدينة وسلموها إلى سليمان بن عبد الجبار. فسير عماد الدين إليها الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقوش في عسكر قوي، ومعها التوقيع من السلطان لعماد الدين بالموصل والجزيرة والشام. فوصلوا إلى حلب وسيرا قتلغ وابن عبد الجبار إلى عماد الدين بالموصل، فسارا إليه وأقام حسن قراقوش بحلب واليا عليها. فلما وصل بدر الدولة ابن عبد الجبار وقاتلغ إلى عماد الدين أصلح بينهما، ولم يردهما إلى حلب، وسير حاجبه صلاح الدين محمد الياغسياني في عسكر إلى حلب، فصعد إلى قلعتها ورتب الأمور، وجعل فيها واليا، وسار عماد الدين إلى الشام في جيوشه، فملك في طريقه مدينة منبج وبزاعة، ووصل إلى حلب، فتلقاها أهلها، فدخلها ورتب أحوالها، وجعل رئاستها لأبي الحسن علي بن عبد الرزاق.

ذكر ملكه مدينة حماه

وفي سنة ثلاث وعشرين ملك عماد الدين زنكي مدينة حماه. وسبب ذلك أنه أظهر أنه يريد جهاد الفرنج، وأرسل إليه تاج الملوك بوري بن أتابك طغديكين صاحب دمشق يستنجده، ويطلب منه معونته على جهاد الفرنج، وكانوا قد حصروا دمشق. فأجاب إلى ذلك وجرى تاج الملوك عسكرا من دمشق، وأرسل إلى ابنه سونج وهو بمدينة حماه يأمره بالنزول

إلى العسكر والمسير به إلى زنكي، ففعل وساروا جميعهم فوصلوا إليه، فأكرمهم وأحسن لقاءهم، وتركهم أياماً، ثم قبض على سونج بن تاج الملوك، وعلى جماعة من الأمراء والمقدمين، وأنهب خيامهم وما فيها واعتقلهم بحلب. وسار من يومه إلى حماة، فوصل إليها وهي خالية من الجند فاستولى عليها، ورحل عنها إلى حمص. وكان صاحبها خيرخان بن قراجنا في عسكر عماد الدين، وهو الذي أشار عليه بالقبض على تاج الملوك، فقبض عليه أيضاً، ونزل على حمص، وطلب منه أن يأمر أصحابه وولده بحمص بتسليمها، فأرسل إليهم فلم يفعلوا، فحصرها مدة طويلة، ثم رحل عنها وعاد إلى الموصل.

ذكر ملكه حصن الأثارب وهزيمة الفرنج

قال: ولما فرغ عماد الدين من أمر البلاد الشامية، رجع إلى الموصل فأراح واستراح، وأمر أصحابه بالاستعداد فاستعدوا، ورجع إلى حلب وعزم على قصد حصن الأثارب، وهو فيما بين حلب وأنطاكية على ثلاثة فراسخ من حلب. وكان من به من الفرنج يقاسمون أهل حلب على جميع أعمالها الغربية حتى رعى لأهل حلب بظاهر باب الجنان، بينها وبين البلد عرض الطريق. فلما علم الفرنج بقصده جمعوا فارسهم وراجلهم واستعدوا وساروا نحوه، فتقدم إليهم والتقوا واقتتلوا واشتد القتال، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة، وأسر كثير من فرسانهم، وقتل كثير، وتقدم إلى الحصن فنازله وفتحه عنوة، وعم من فيه بالقتل والأسر وأخربه، وجعله دكا، ثم سار إلى قلعة حارم وهي بالقرب من أنطاكية فحصرها، فبذل الفرنج نصف دخل بلد حارم وهادنوه فأجابهم إلى ذلك، وعاد عنهم وقد اشتد أزر المسلمين وصار قصار الفرنج حفظ ما بأيديهم، وذلك في سنة أربع وعشرين وخمسةائة.

ولما عاد إلى ديار الجزيرة ملك سروج ودارا وهما من أعمال ركن الدولة صاحب حصن كيفا.

وفي سنة ست وعشرين سار عماد الدين بالعساكر من الموصل إلى العراق لنصرة السلطان مسعود بعد وفاة السلطان محمود، وكان مسعود قد كاتبه واستنجد به، فسار إليه ومعه الأمير ديبس بن صدقة فسار حتى نزل إلى البادية، وخرج الخليفة المسترشد بالله لحربه - وذلك في سابع عشرين شهر رجب من السنة - والتقوا واقتتلوا قتالا شديدا، فحمل عماد الدين على ميمنة الخليفة وبها جمال الدولة إقبال فهزمتها، فحمل الخليفة بنفسه واشتد القتال فانهزم ديبس، وأراد عماد الدين الصبر فرأى الناس قد تفرقوا عنه فانهزم، وقتل من العسكر جماعة.

ثم سار المسترشد وحاصر الموصل كما ذكرناه في أخباره. وأن سبب ذلك أن الخليفة أرسل الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفرائيني الواعظ إلى عماد الدين برسالة فيها خشونة، زادها الشيخ زيادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة، فقبض عليه عماد الدين وأهانته ولقيه بما يكره، فسار الخليفة في النصف من شعبان سنة سبع وعشرين ونازل الموصل، ففارقها زكي ببعض العسكر، وترك بعضه مع نائبه نصير الدين جقردزار القلعة. ووصل عماد الدين إلى سنجار وقطع الميرة عن عسكر الخليفة وتخطف من ظفر به من العسكر. ودام الحصار ثلاثة أشهر، ثم رحل الخليفة عنها ولم يظفر منها بشيء.

وفي مدة الحصار ملك شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماه.

ذكر حصره مدينة آمد وملكه قلعة الصور

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة اجتمع عماد الدين أتابك زنكي وتمرتاش صاحب ماردين، وحصروا مدينة آمد. فأرسل صاحبها إلى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده، فجمع عساكره وغيرها وسار نحو آمد ليرحلها عنها، فالتقوا على بابها، واقتتلوا في جمادى الآخرة، فانهزم داود وقتل جماعة من عسكره. ولم يبلغ عماد الدين من آمد غرضاً، فقصده قلعة الصور من ديار بكر، وحصرها وضايقها، فملكها في شهر رجب واتصل به ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوئي فاستوزره، وكان حسن السيرة عظيم الرئاسة والكفاية، والله أعلم.

ذكر ملكه قلاع الأكراد الحميدية

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة أيضا استولى على جميع قلاع الأكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرها. وكان لما ملك الموصل أقر صاحبها الأمير عيسى الحميدي على ولايتها وأعمالها، فلما حضر المسترشد أمر عماد الدين بحصر قلاع الأكراد فحصرت مدة طويلة، وقوتل من بها إلى أن ملكت في هذه السنة، فاطمأن حينئذ أهل السواد المجاورين لهذه القلاع، لأنهم كانوا مع الأكراد في ضيق عظيم من نهب أموالهم.

وفيهما صلح أمر زنكي مع الخليفة

ذكر حصره مدينة دمشق

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة نازل عماد الدين أتابك زنكي مدينة دمشق، وحصرها في جمادى الأولى، وكان سبب ذلك أن صاحبها شمس الملوك كان قد كتب إليه يستدعيه ليسلم إليه البلد، فسار إليها، فقتل

شمس الملوك قيل وصوله، وملك أخوه شهاب الدين محمود كما ذكرناه، فاستمر في مسيره فحاصرها. فأتاه وهو في الحصار رسول الخليفة بالخلع، ويأمره بمصالحة صاحب دمشق والرحيل عنها فصالحهم، وخطب له بدمشق ورحل عنها لليلتين بقيتا من جمادى الأولى من السنة.

وفي سنة ثلاثين وخمسة استنصر الخليفة الراشد بالله بعماد الدين على السلطان مسعود كما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية، فجاء إليه هو وأصحاب الأطراف إلى بغداد، وكان بين الخليفة والسلطان ما ذكرناه من غلبة السلطان مسعود ومسير الخليفة إلى الموصل مع عماد الدين، وقد شرحنا ذلك مبينا في أخبار الدولة العباسية، فلا فائدة في إعادته، وإنما نبهنا عليه في هذا الموضع جريا على القاعدة.

ولما خلع الراشد وبويع للمقتفي لأمر الله، أرسل إليه عماد الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري، فحضر إلى الديوان، فأمر الخليفة أن يعطي أتاك زنكي: صريفين، ودرب هرون، وجري، ملكا، وهي من خاص الخليفة. « فعظم بذلك شأنه، وبايع للمقتفي لأمر الله، وخطب له بالموصل.

ذكر غزاة العسكر الأتابكي إلى بلاد الفرنج

وفي شعبان سنة ثلاثين وخمسة جهز عماد الدين أتابك زنكي عساكره مع الأمير سوار نائبه بحلب، فقصدوا بلد الفرنج على حين غفلة منهم، وساروا نحو جهة اللاذقية، فنهبوا منها شيئا كثيرا، وقتلوا وأسروا سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي، وغنموا مائة ألف رأس من الدواب، ما بين فرس وحمار وبقر وغنم، وغنموا غير ذلك من الأقمشة والعين والحلي ما لا يدخل تحت الإحصاء، وخرّبوا بلاد اللاذقية وما جاورها، ورجعوا بالظفر والغنيمة، والله أعلم.

ذكر ملكه قلعة بعرين وهزيمة الفرنج

وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسة حصر عماد الدين زنكي حمص، وهي لصاحب دمشق، فلم ينل منها غرضاً. فرحل عنها إلى بعرين وهي للفرنج، فحاصرها في شوال، وهي من أمنع الحصون وأحصنها، وزحف عليها، فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا بملوكهم وقمامتهم وكنودهم ليرحلوه عنها، فالتقوا واقتتلوا واشتد القتال، فأجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية، فاحتمى ملوكهم وفرسانهم بحصن بعرين لقربه، فحصرهم، فدخل القسوس والرهبان إلى بلاد الفرنج والروم وما ولاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين، وقالوا: إن المسلمين ليس لهم همة إلا قصد البيت المقدس، فاجتمعت ملوك النصرانية وصاروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام، وجدّ عماد الدين في الحصار، فقلت الأوقات عندهم، فسألوا الأمان على أن يتركهم يتوجهوا إلى بلادهم، فلم يجب إلى ذلك، إلى أن بلغه أن ملك الروم قد أقبل بجموع الفرنج والنصرانية، فأمنهم على تسليم الحصن وخمسين ألف دينار. ففعلوا ذلك. فلما فارقوا الحصن بلغهم اجتماع الروم والفرنج بسببهم، فندموا على تسليمه، وفتح عماد الدين في مقامه: المعرة، وكفر طاب، من الفرنج.

ولما فتح المعرة حضر إليه أرباب الأملاك، وطلبوا أملاكهم، فطلب منهم كتبها فاعتذروا أنها عدمت عندما ملكها الفرنج، فأمر بإحضار دفاتر الديوان بحلب، وكشف منها فمن وجد باسمه خراج فيها عن ملك سلمه إليه أو لعقبه إن كان قد مات، وأعاد الأملاك بهذه الطريق، وهذه غاية في الإحسان وفي تسهيل البر والخير ونهاية في العدل.

وفيهما سار إلى دقوقا وملكها بعد قتال شديد.

ذكر ملكه مدينة حمص وغيرها من أعمال دمشق

وفي المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وصل زنكي إلى حماة، وسار منها إلى بقاع بعلبك، فملك حصن المجدل، وسار إلى حمص وحصرها وملكها وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وكان لصاحب دمشق، وبعث إلى شهاب الدين محمود صاحب دمشق يخطب أمه زمرد خاتون ابنة جاولي، فتزوجها وحملت إليه.

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين

كان ملك الروم صاحب القسطنطينية قد دخل إلى البلاد في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وخرج على أنطاكية وساز إلى أذنة والمصيصة، وهما بيد ابن لاون الأرمني صاحب الدروب فحصرها، وملكها ورحل إلى عين زربة، فملكها عنوة، وملك تل خمدون، وحمل أهله إلى جزيرة قبرص، وعمر ميناء اسكندرونة، ثم خرج إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية في ذي القعدة فصالحه صاحبها ريمند الفرنجي، فرحل عنها إلى بغراس ودخل ابن ليون في طاعته.

ثم سار إلى الشام في سنة اثنتين وثلاثين، وقصد بزاعة فحصرها، وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب، فملكها بالأمان في الخامس والعشرين من رجب، ثم غدر بأهلها فقتل منهم وسبى، فتنصر قاضيها وجماعة من أهلها وأعيانها نحو من أربعمائة نفس. وأقام الروم عشرة أيام يطلبون من اختفى، ودخنوا على من دخل المغاير، فهلكوا. ثم رحل إلى حلب ونزل على قويق ومعه الفرنج الذين بساحل الشام، وكان عماد الدين يحاصر حمص، فلما بلغه خبرهم، سير طائفة من العسكر ليحفظوا حلب منهم، فلما نزلوا على حلب خرج إليهم أحداث البلد وقتلوا قتالا

شديداً، فقتل كثير من الروم وجرح كثير، وقتل بطريق عظيم القدر عندهم. فأقاموا ثلاثة أيام ورحلوا إلى قلعة الأثارب، فخاف من بها من المسلمين فهربوا عنها في تاسع شعبان، فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والأسرى، ومعهم جمع كثير من الروم يحفظونهم، وساروا، فلما سمع الأمير سوار نائب عماد الدين بحلب بذلك، سار بمن عنده من العسكر إلى الأثارب فأوقع بالروم وقتلهم، وخلص الأسرى وعاد إلى حلب.

وأما عماد الدين فإنه فارق حمص وسار إلى سلمية فنزلها، وعبر ثقله الفرات إلى الرقة، وأقام جريدة. وقصد الروم شيزر، وهي من أمنع الحصون، وكانت للأمير أبي المعالي سلطان بن علي بن منقذ الكناني، فنازلوها وحاصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا فأرسل صاحبها إلى عماد الدين يستنجده، فسار إليه ونزل على نهر العاصي بينها وبين حماه، فكان يركب بعسكره إلى شيزر ويقفون حيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم، ثم أرسل إلى ملك الروم يقول: « إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال، فانزلوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وإن ظفرت بي استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها» ولم تكن له بهم قوة، وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه، فأشار فرنج الشام على ملك الروم بقتاله وهونوا عليه أمره، فلم يفعل، وقال: « أتظنون أن ليس لهم من العسكر إلا ما ترون، إنما هو يريد أن تلقوه فيأتيه من نجدات المسلمين ما لا يجد»، وكان عماد الدين يرسل إلى ملك الروم يقول: « إن فرنج الشام خائفون منه، ولو فارق مكانه لتخلفوا عنه، ويرسل إلى الفرنج فيقول: « إن ملك الروم من الشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعها»، فاستشعرت كل طائفة من الأخرى، فرحل ملك الروم من شيزر في شهر رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً وترك المجانيق وآلات الحصار كما هي، فسار عماد الدين يتبع ساقه العسكر، فظفر بكثير منهم ممن تخلف.

ذكر ملك عماد الدين بعلبك

وفي ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين وخمسة مائة ملك زنكي مدينة بعلبك وهي لصاحب دمشق، وسبب ذلك أن شهاب الدين محمود صاحب دمشق قتله غلمانة في هذه السنة كما ذكرنا، وملك بعده أخوه جمال الدين محمد، وكانت والدة محمود زوجة عماد الدين بحلب، فوجدت لذلك وجدا عظيما، وحزنت حزنا شديدا، وكتبت إلى أتابك زنكي وهو بالجزيرة تعرفه بالحاذثة وتطلب أن يقصد دمشق ويطلب ثأر ولدها، فبادر إلى ذلك ولم يتوقف وعبر الفرات عازما على قصد دمشق، فبلغ ذلك صاحبها فاحتاط واستعد، وسار عماد الدين إلى بعلبك فوصل إليها في العشرين من ذي القعدة، وضيق على أهلها ونصب عليها أربعة عشر منجنيقا ترمي ليلا ونهارا. فأشرف أهلها على الهلاك، فطلبوا الأمان فأمنهم وتسلم المدينة. وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك، فلما أيسوا من نصرة معين الدين أتابك صاحب دمشق - وكانت بعلبك له - فطلبوا الأمان، فأمنهم وتسلم القلعة منهم، ثم غدر بهم وصلبهم ولم ينج منهم إلا القليل. فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه وحذروه ونفروا منه.

قال: ولما فتح بعلبك كان لمعين الدين بها جارية، وكان يهواها، فأخذها زنكي وسيرها إلى حلب، فلم تزل بها إلى أن قتل زنكي، فسيرها نور الدين إلى معين الدين، فكانت أعظم أسباب المودة بينهما.

قال: ولما فرغ عماد الدين من بعلبك سار إلى دمشق في شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وخمسة مائة ونزل على داريا، فقاتله أهل دمشق فكسروهم وتقدم إلى المصلى فقاتلوه مرة بعد أخرى. كل ذلك والظفر له عليهم، وأرسل إلى صاحب دمشق يبذل له بعلبك وحمص وغيرها مما يختاره من البلاد، فمال إلى تسليمها، فحذره أصحابه وخوفوه عاقبة غدره،

فامتنع من الإجابة فعاود عماد الدين القتال والزحف. واتفقت وفاة جمال الدين صاحب دمشق في ثامن شعبان، وولي بعده ابنه مجير الدين أبق، فاشتد طمع عماد الدين وزحف زحفا شديدا، فلما رأى أنر أن عماد الدين لا يندفع عنهم، راسل الفرنج واستنصر بهم، فاجتمعت الفرنج وعزموا على المسير لدفعه عن دمشق، فعلم عماد الدين بذلك فتوجه إلى حوران في خامس عشر رمضان عازما على لقاء الفرنج قبل أن يجتمعوا مع الدماشقة، فلما بلغ الفرنج خبره لم يتحركوا من بلادهم، فعاد إلى حصار دمشق ونزل بعذرا شماليها في سادس شوال، وأحرق عدة من قرى المريج والغوطة، ورحل إلى بلاده.

ثم وصل الفرنج إلى دمشق، وكان معين الدين قد بذل لهم أنه يحاصر بانياس ويسلمها إليهم، وكانت في طاعة زنكي، ففعل معين الدين ذلك وسلمها للفرنج. فلما بلغ عماد الدين ذلك رجع إلى بعلبك وفرق عساكره للإغارة على بلد حوران وأعمال دمشق. وسار جريدة، فنزل على دمشق بخواصه في آخر الليل، ولم يعلم به أحد من أهلها، فلما أصبح الناس ورأوا عسكره ارتج البلد، واجتمع العسكر والعامّة على السور، وخرجوا إليه فقاتلوه، فلم يمكنه الإقدام على القتال لتفريق عساكره، فأحجم عنهم وعاد إلى مريج راهط، وأقام ينتظر عود عسكره، فعادوا إليه وقد ملأوا أيديهم من الغنائم فلما اجتمعوا رحلوا إلى بلاده.

ذكر ملكه شهرزور وأعمالها

وفي سنة أربع وثلاثين وخمسة مائة ملك شهرزور وأعمالها وما يجاورها من الحصون، وكانت بيد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني، وكان حكمه نافذا على سائر التركمان، قاصيهم ودانيهم، وكلمته لا تخالف، يرون طاعته فرضا؛ وتحاماه الملوك، وأتاه التركمان من كل فج عميق، فلما كان في هذه السنة سير أتابك عماد الدين عسكرا، فجمع قفجاق

أصحابه ولقيهم، واقتتلوا فانهزم قفجاق واستبيح عسكره، وسار الجيش الأتابكي في أعقابهم فحاصروا الحصون والقلاع وبذلوا الأمان لقفجاق فسار إليهم، وانخرط في سلك العسكر وسار في الخدمة هو وابنه من بعده.

وفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة كان بين أتابك زنكي وبين داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا حرب شديدة انهزم فيها داود، وملك زنكي من بلاده قلعة بهمرد، وأدرکه الشتاء فعاد إلى الموصل.

وفيها خطب له بمدينة آمد وصار صاحبها في طاعته، وكان قبل ذلك موافقا لداود على قتال زنكي فلما رأى قوة زنكي سار معه.

وفيها أغار العسكر الأتابكي من حلب على بلد الفرنج، فأخربوا ونهبوا وظفروا بسرية للفرنج، فقتلوا منهم وكان عدة من قتل سبعمائة رجل.

توفي ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوشي وزير عماد الدين أتابك زنكي، وكان رحمه الله حسن السيرة كريما رئيسا.

ذكر ملك عماد الدين زنكي قلعة آشب وغيرها من بلاد الهكارية

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة أرسل عماد الدين جيشا إلى قلعة آشب، وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها، وبها أموالهم وأهلهم، فحاصرها الجيش الأتابكي وضيق على من بها وملكها، فأمر عماد الدين بهدمها، وبني القلعة العمادية وكانت العمادية حصنا عظيما من حصونهم فخرّبوه لكبره، لأنه كبير جدا، فعجزوا عن حفظه فخرّبت الآن آشب وعمرت العمادية، والعمادية نسبة إلى عماد الدين زنكي،

وكان نصير الدين جقر نائب عماد الدين بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية.

ذكر صلحه والسلطان مسعود

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وصل السلطان مسعود إلى بغداد على عادته، وجمع العساكر وتجهز لقصد بلاد زنكي، وكان قد حقد عليه واتهمه أنه أفسد عليه أصحاب الأطراف وحرصهم على الخروج على السلطان، فلما بلغ زنكي ذلك أرسل إلى السلطان يستعطفه ويستميله، وأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد، فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار، يحملها عماد الدين إلى السلطان ليعود عنه، فحمل منها عشرين ألف دينار أكثرها عروضاً، ثم تنقلت الأحوال بالسلطان حتى احتاج إلى مداراة زنكي، فأطلق له ما بقي، ومن جيد الرأي ما فعله عماد الدين زنكي في هذه الحادثة، فإن ولده الأكبر سيف الدين غازي كان لا يزال عند السلطان - سفراً وحضراً - بأمر والده، فأرسل إليه الآن يأمره بالهرب من عند السلطان إلى الموصل، وأرسل إلى نائبه بالموصل أن يمنع ابنه المذكور من الدخول - فلما هرب غازي أرسل يأمره بالعود إلى السلطان، ولم يجتمع به، وأرسل معه رسولا إلى السلطان يقول: « إن ولدي هرب خوفاً لما رأى تغير السلطان علي، وقد أعدته، ولم أجمع به فإنه مملوكك والبلاد لك » فوقع ذلك من السلطان بموقع عظيم، ومال إلى زنكي.

ذكر ملكه بعض ديار بكر

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة سار عماد الدين زنكي إلى ديار بكر، فملك بها عدة حصون منها مدينة طنزة ومدينة اسعرد ومدينة المعدن

التي يعمل بها النحاس، ومدينة حيزان وحصن الزوق، وحصن فطليس، وحصن باناسا وحصن ذي القرنين وغير ذلك. وأخذ من بلاد ماردين مما هو بيد الفرنج جملين والموزر وتل موزر وغيرها من حصون شبختان ورتب أمور الجميع وجعل فيها من يحفظها، وقصد مدينة آمد، وحاني فحصرها وأقام بتلك الناحية. وفيها سير عسكرياً إلى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكها.

ذكر فتح الرها وغيرها من بلاد الجزيرة مما هو بيد الفرنج

وفي سادس جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسة فتح عماد الدين أتابك زنكي مدينة الرها من حصون الفرنج الجزيرة، وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها، وبلغت آمد ونصيبين، ورأس عين، والرقعة وكانت مملكة الفرنج بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات مثل: الرها، وسروج، والبيرة. وسن ابن عطير، وجملين، والموزر والقراي، وغير ذلك. وكانت هذه الأعمال وغيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين الفرنجي، وكان صاحب رأي الفرنج، والمقدم على عساكرهم، لما فيه من الشجاعة والمكر، وكان عماد الدين يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع من الفرنج بها من يمنعها، ويتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة، فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ إلى قصد بلادهم، فاطمأنوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاده الغربية، فبلغ أتابك زنكي ذلك، فنادى في العسكر بالرحيل إلى الرها وجمع الأمراء عنده وقدم الطعام، وقال: « لا يأكل معي على مائتي هذه إلا من يطعن معي غداً في باب الرها. » فلم يتقدم غير أمير واحد وصبي لا يعرف، لما يعلموا من إقدام زنكي وشجاعته، وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبي: « ما أنت في هذا المقام » فقال أتابك زنكي: « دعه فوالله إني أرى وجهه لا يتخلف عني. »

وسار والعسكر معه فوصل إلى الرها، فكان عماد الدين أول من حمل على الفرنج والصبي معه، وحمل فارس من الفرنج على زنكي عرضاً فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله، وسلم زنكي. ونازل البلد وقاتل عليه ثمانية وعشرين يوماً وملكه غنوة، وملك القلعة، ونهب الناس الأموال، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء.

فلما رأى عماد الدين البلد أعجبه، ورأى أن تخريب مثله لا يجوز في السياسة، فنودي بالعسكر برد ما أخذه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، ورد ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردوا ذلك وعاد البلد إلى حالته الأولى، وجعل فيه عسكرياً يحفظه، وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات، ما عدا البيرة لحصانتها.

وحكى ابن الأثير رحمه الله في تاريخه الكامل قال: حكى لي بعض العلماء بالأنساب والتواريخ، قال: كان صاحب صقلية قد أرسل سرية إلى طرابلس الغرب، وتلك الأعمال فنهبوا وقتلوا، وكان عند صاحب صقلية رجل مسلم كان يكرمه ويحترمه، ويرجع إلى قوله، ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان، حتى كان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب. ففي بعض الأيام كان جالساً في منظرية يشرف على البحر، وإذا بمركب لطيف قد أقبل وأخبر من فيه أن عسكره دخلوا بلاد الإسلام، وظفروا وغنموا وقتلوا، وكان المسلم إلى جانبه، وقد أغفى فقال له الملك: « يافلان ألا تسمع إلى ما يقولون؟ » قال: « لا » قال: « إنهم يخبرون بكذا وكذا، أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها؟ » قال: « كان قد غاب عنهم وشهد فتح الرها، فقد فتحها المسلمون الآن » ، فضحك من هناك من الفرنج فقال الملك: « لاتضحكوا فما يقول والله إلا الحق »، فوصل بعد أيام الخبر من فرنج الشام بفتحها، قال ابن الأثير: وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنساناً صالحاً رأى الشهيد زنكي في منامه فقال له: « ما فعل الله بك » قال: « غفر لي بفتح الرها ».

ذكر مقتل نصير الدين جقر، وولاية زين الدين علي كوجك

كان مقتله في ذي القعدة تسع وثلاثين ووخسمائة. وسبب ذلك أنه كان ينوب عن عماد الدين أتابك زنكي بالموصل وسائر الأعمال التي شرقي الفرات، وكان الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود عند زنكي، وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أن هذه البلاد لهذا الملك. وكان ألب أرسلان في هذه السنة بالموصل، ونصير الدين يحضر إلى خدمته في كل يوم، فحسن له بعض المفسدين طلب الملك وقالوا له: « إن قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها، ولا يبقى مع أتابك زنكي فارس واحد »، فمال إلى ذلك، فلما دخل نصير الدين إليه وثب إليه من عنده فقتلوه، وألقوا رأسه إلى أصحابه، ظنا منهم أنهم يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلاد، فلما رأى أصحابه الرأس قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير، فدخل القاضي تاج الدين يحيى بن الشهرزوري إلى الملك ألب أرسلان وخذعه، وكان فيما قاله حين رآه منزعجا: « يامولانا لم تحرد من هذا الكلب؟ هو وأستاذه مماليكك، الحمد لله الذي أراحنا منه ومن صاحبه على يديك»، ثم قال له: « وما الذي يقعدك في هذه الدار؟ قم لتصعد إلى القلعة وتأخذ الأموال والسلاح وتملك البلد، وتجمع الجند وليس دون البلاد بعد الموصل مانع»، فقام معه وركب وأصعده إلى القلعة، فلما قاربها أراد من بها من النقيب والأجناد القتال، فتقدم إليهم القاضي تاج الدين فقال: « افتحوا الباب وتسلموه وافعلوا ما أردتم » ففتحوا الباب ودخل الملك والقاضي إلى القلعة ومعهما من أعان على قتل نصير الدين. فلما صاروا بالقلعة سجنوا كلهم إلا القاضي.

وبلغ الخبر عماد الدين وهو يحاصر قلعة البيرة، وقد أشرف على فتحها، فخاف أن تختلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين، ففارق

البيرة وأرسل زين الدين علي بن بكتكين إلى قلعة الموصل واليا على ما كان نصير الدين يتولاه. وسار عماد الدين عن البيرة، فخاف من بها من الفرنج أن يعود إليهم، فسلموها لصاحب ماردين. وملكها المسلمون. فإن لم يكن عماد الدين زنكي فتحها، فهو سبب فتحها.

ذكر مقتل عماد الدين زنكي

كان مقتله رحمه الله لخمس مضمين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وذلك أنه كان يحاصر قلعة جعبر، وكانت بيد سالم بن مالك العقيلي منذ سلمها السلطان ملكشاه إلى أبيه، عوضا عن قلعة حلب كما تقدم في أخبار السلجوقية. فحاصرها عماد الدين الآن وأقام عليها إلى هذا التاريخ، فدخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة، وهربوا إلى القلعة ولم يشعر أصحابه. فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها بالعسكر، وأعلموهم بقتل صاحبهم، فبادر أصحابه إليه فأدركوه وبه رمق. ثم مات رحمه الله تعالى وكان عمره نحو من أربع وستين سنة، ومدة ملكه منذ ولي الموصل وإلى أن قتل عشرين سنة.

وكان حسن الصورة أسمر اللون، وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة لا يقدر القوي معه على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمرها وامتلأت بأهلها وغير أهلها، وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: « مهها كانت البلاد لنا فأبي حاجة لكم إلى أملاك؟ فإن خرجت عن أيدينا فالأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية، وتعدوا عليهم، وغصبوهم أملاكهم، والإقطاعات تغني أصحاب السلطان عنها. وخلف من الأولاد سيف الدين غازي وهو أكبر أولاده ونور الدين محمود وهو الملك العادل، وقطب الدين مودود، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصير الدين أمير

أميران. فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والإناث، ونور الدين من الذكور، وبقي في عقب قطب الدين، على ما نذكر إن شاء الله تعالى.

قال: ولما قتل أتابك زنكي كان ولده نور الدين محمود معه، فأخذ خاتمه من يده، وسار إلى حلب فملكها، وسنذكر أخباره مفصلة بعد سيف الدين غازي، والله أعلم.

ذكر ملك سيف الدين غازي ابن الشهيد عماد الدين أتابك زنكي

قال: لما قتل أتابك زنكي كان الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود معه، فاجتمعت العساكر عليه، وكان الحاكم على دولة زنكي والمدبر لها من أرباب الأقاليم جمال الدين محمد بن علي بن منصور الأصفهاني شبه الوزير، ومعه الحاجب صلاح الدين محمد بن أيوب الياغسياني فاتفقا على حفظ الملك لأولاد صاحبهم عماد الدين وتحالفا على ذلك، وركبا إلى خدمة الملك ألب أرسلان، وخدماه وضمنا له فتح البلاد. وقال له: « إن أتابك زنكي إنما كان الناس يطيعونه لأنه كان نائبك » فقبل منهما ذلك وظن صدقهما ومناصحتهما وقربهما، وأرسلا إلى زين الدين علي بن مظفر الدين صاحب إربل بالموصل يعرفانه بوفاة الشهيد ويأمرانه أن يرسل إلى ابنه سيف الدين غازي ليحضر إلى الموصل، وكان بشهرزور وهي إقطاعه من قبل أبيه، ففعل ذلك ووصل إلى الموصل، وأشار جمال الدين على الملك بإرسال الحاجب صلاح الدين إلى حلب ليدبر أمر نور الدين فأمره بالمسير إليها فسار، وكانت حماه إقطاعه، وانفرد جمال الدين بالملك ألب أرسلان فقصده به الرقة، واشتغل بالشرب واللهو واستمال جمال الدين العسكر، وحلفهم لسيف الدين غازي، وصار يأمر من تخلف بالمسير إلى الموصل هاربا من الملك، وبقي جمال الدين يسير بالملك من الرقة إلى سنجار، ويخذه ويطمعه، وما زال حتى انتهى به إلى

الموصل. وأرسل الأمير عز الدين الديبسي إلى الملك في عسكره، والملك في نفر سيره، فأخذه وأدخله الموصل، فكان آخر العهد به. فاستقر أمر سيف الدين بالموصل واستوزر جمال الدين، وأرسل إلى السلطان مسعود في إمرة الموصل فأمره على البلاد، وأرسل له الخلع، وكان سيف الدين قد تقدمت له خدمة على السلطان مسعود ولازمه سفرا وحضرا في أيام زنكي.

قال: ولما استتب الأمر لسيف الدين غازي بالموصل عبر إلى الشام لينظر في أمور البلاد، ويقرر قاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، ولما عبر الفرات لم يحضر نور الدين إليه وخافه فراسله واستماله بحسن سياسته، فاستقرت الحال بينهما أن يجتمعا خارج العسكر السيفي، وكل منهما في خمسمائة فارس. فسار نور الدين يوم المعياد من حلب بهذه العدة، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلما رآه نور الدين ترجل وقبل الأرض، وأعاد أصحابه فاجتمعا وتحالفا واتفقا أحسن اتفاق، واستقر نور الدين بحلب وما معها، وسيف الدين بالموصل وما معها.

ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعله سيف الدين غازي

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وصل ملك الألمان في جمع كثير من الفرنج، وعزم على ملك الشام، وظن أنه يملكه لا محالة لكثرة أصحابه واجتمع عليه من بالشام والسواحل من الفرنج. ووصل إلى دمشق وحاصرها، ونزل الميدان الأخضر، فأيقن أهلها بخروجها عن الإسلام. وكان ملكها يوم ذاك مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغديكين، وليس له من الأمر شيء والحكم في البلد لأتابكه معين الدين مملوك جد أبيه، فأرسل إلى سيف الدين غازي يستنجده، فجمع عساكره والعساكر الحلبية، وسار إلى دمشق، فخافه الفرنج. ثم راسل فرنج الساحل ووعدهم بحصر بانياس، فاجتمعوا بملك الألمان وقالوا له: « إن هذا

ملك بلاد المشرق قد قدم» وخوفوه عاقبة أمره، فرحل ملك الألمان إلى بلاده، وتسلم الفرنج بانياس، كما وقع الاتفاق عليه، وعاد سيف الدين إلى الموصل.

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي

كانت وفاته في أواخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة بالموصل لمرض حاد، ودفن بمدرسته التي بناها بالموصل. فكانت ولايته ثلاث سنين وشهرا وعشرين يوما، وعمره نحو من أربع وأربعين سنة، وخلف ولدا ذكرا رباه عمه نور الدين محمود أحسن تربية، وزوجه بابنة عمه قطب الدين، ولم تطل مدته، ومات في عنفوان شبابه، وانقرض عقب غازي بوفاته.

قال: وكان سيف الدين غازي يمد لعسكره في كل يوم سباطا كبيرا، طرفي النهار يكون في سباطه للغذاء مائة رأس من الغنم. وأمر الأجناد أن يركبوا بالسيوف والدبابيس، فاقتدى به أصحاب الأطراف، وهو أول من حمل على رأسه السنجق من عمال الأطراف، وبنى المدرسة الأتابكية العتيقة بالموصل، ووقفها على طائفتي الشافعية والحنفية، وبنى رباط الصوفية بالموصل، ولم تطل أيامه حتى يفعل ما في نفسه من وجوه البر، رحمه الله. وسندكر إن شاء الله تعالى من ملك الموصل بعده، إذا انقضت أخبار الشهيد نور الدين وولده.

ذكر أخبار الملك العادل نور الدين أبي القاسم محمود ابن أتابك عماد الدين أبي سعيد زنكي بن أقسنقر

قد ذكرنا أنه لما مات والده رحمه الله في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، توجه بخاتمه إلى حلب وملكها، وذكرنا أيضا ما كان بينه وبين أخيه سيف الدين غازي رحمه الله، وما اتفقا عليه، فلنذكر من

أخباره خلاف ذلك. ولنبدأ بغزواته وفتوحاته ، ثم نذكر ما استولى عليه من الممالك وغير ذلك.

ذكر الغزوات والفتوحات النورية وما استنقذه من أيدي الفرنج

ذكر عصيان مدينة الرها وفتحها الثاني ونهبها

قال: لما قتل أتابك زنكي كان جوسلين الفرنجي صاحب الرها في ولايته وهي تل باشر، فراسل عامة أهل الرها من الأرمن وحملهم على العصيان والامتناع على المسلمين، فأجابوه إلى ذلك، فسار في عساكره إلى الرها وملك البلد، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها. فسار نور الدين ، وجد السير إليها، فلما قاربها هرب جوسلين عنها، وعاد إلى بلده، ودخل نور الدين البلد، ونهب المدينة، وسبى أهلها، فخلت منهم ولم يبق بها إلا القليل، وذلك في سنة إحدى وأربعين وخمسة. وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسة، فتح مدينة ارتاح بالسيف، ونهبها ، وحصن ما بوله وبصرفوث وكفر لاثا، وكان الفرنج بعد قتل أتابك زنكي قد طمعوا وظنوا أنهم يستردون ما أخذ منهم فخاب ظنهم.

ذكر فتح حصن العريمة

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسة فتح حصن العريمة، وهو من أعمال طرابلس. وكان ملك الألمان لما سار عن دمشق وجه إلى العريمة ولد ألفنش صاحب طليطه، وهو من أولاد أكابر ملوك الفرنج، وكان جده هو الذي فتح طرابلس، فملك العريمة، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس من القمص، فأرسل القمص إلى نور الدين، وإلى معين الدين صاحب دمشق أن يقصدا حصن العريمة ويملكاه. فسار نور الدين من حلب

ومعين الدين من دمشق واستمد سيف الدين غازي، فأمدهما بعسكر
كثيف مع الأمير عز الدين الدبيسي، صاحب جزيرة ابن عمر، فنازلوا
الحصن، وحصروه وبه ولد ألفنش، فاستسلم من به بعد امتناع، وملكه
المسلمون، وأخذوا كل من فيه من فارس وراجل وصبي وامرأة. وكان ولد
ألفنش ممن أسر وأخربوا الحصن ثم عادوا.

ذكر انهزام الفرنج بيغرى

وفي سنة ثلاث وأربعين أيضا، اجتمع الفرنج لقصد حلب، فسار
إليهم الملك العادل نور الدين بعسكره، فالتقوا بيغرى، واقتتلوا قتالا
شديدا، أجلت الحروب عن ظفر الملك العادل، وانهزام الفرنج وأسر
جماعة من مقدميهم. ولم ينج من ذلك الجمع إلا اليسير. وأرسل نور
الدين من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين وإلى الخليفة ببغداد
وإلى السلطان مسعود وغيرهم. وفي هذه الواقعة يقول ابن القيسراني من
قصيدة أولها:

يأليت أن الصدم مصدود

أولا فليت النجوم مردود

جاء منها:

وكيف لائثني على عيشنا المحم

مود والسلطان محمد مود

وصارم الإسلام لائثني

إلا وشلو الكفر مقودود

مكارم لم تك مودودة

إلا ونور الدين مودود

وكم له من وقعة يومها

عند ملوك الكفر مشهود

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة، غزا نور الدين بلاد الفرنج، من ناحية أنطاكية، وقصد حصن حارم وهو للفرنج، وحصره وخرب ربهضه، ونهب سواده ثم رحل إلى حصن إنب فحضره، فاجتمعت الفرنج لقتاله مع البرنس، واقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم الفرنج وقتل البرنس وجماعة كثيرة من أصحابه، وأسر خلق كثير، وكان البرنس من عتاة الفرنج، ولما قتل ملك بعده أنطاكية ابنه ييمند، ثم غزاهم نور الدين غزوة ثانية، فقتل وأسر، وكان ممن أسر البرنس الثاني زوج أم ييمند صاحب أنطاكية، وكان قتل البرنس عظيما عند الطائفتين، وأكثر الشعراء مدح نور الدين بهذا الظفر، فكان ممن قال فيه ابن القيسراني الكاتب قصيدته المشهورة وهي:

هذي العزائم لاماتدعي القضب
وذي المكارم لاما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صافحت يابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب
ما زال جسدك ييني كل شاهقة
حتى بنى قبة أوتادها الشهب
أغررت سيوفك بالإفرنج راجفة
فؤاد روميمة الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت لها الصلب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب

ذكر فتح حصن أفامية

وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة فتح الملك العادل نور الدين حصن أفامية من الفرنج، وهو مجاور شيزر وحماة، وهو من أحسن القلاع وأمنعها، فاجتمع الفرنج من الساحل وسازوا نحوه ليرحلوه، فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملاه من الذخائر والسلاح وشحنة بالرجال، وسار عنه في طلب الفرنج، فعدلوا عن طريقه وسألوه الهدنة، وعاد مظفراً منصوراً.

ذكر أسر جوسلين وفتح بلاده

كان نور الدين قد جمع عساكره في سنة ست وأربعين وخمسمائة، وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمالي حلب، وعزم على محاصرتها، وكان جوسلين فارس الفرنج وطاغيتهم، صاحب رأي وشجاعة، فجمع وأكثر، وسار نحو نور الدين والتقوا واقتتلوا، فكانت الهزيمة على المسلمين، وقتل كثير منهم، وأسر سلحدار نور الدين فيمن أسره فأخذ جوسلين سلاحه، وأرسله إلى الملك مسعود بن قلع صاحب الروم، وقال: « هذا سلاح زوج ابنتك وسأتيك بعده بما هو أعظم منه » فأهم نور الدين ذلك وعظم عليه، وعلم أنه لا يتمكن من جوسلين في حرب، لأنه إما أن يجارب أو يجتمى بحصونه. فجعل عليه العيون من التركمان، ووعدهم إن أسروه وأتوا به أو برأسه بمواعيد كثيرة. فرصدوه إلى أن خرج إلى الصيد، وأسروه فصالحهم على مال يؤديه إليهم، فسير في إحضار المال إليهم فجاء بعضهم إلى أبي بكر بن الداية، نائب نور الدين بحلب، وأخبره بالقضية، فسير عسكراً مع من حضر إليه بالخبر، وكبس التركمان وأخذوا جوسلين أسيراً. وكان من أعظم الفتوحات، وأصبحت النصرانية كافة بأسره.

ولما أسر سار نور الدين إلى قلاعه فملكها، وهي : تل باشر، وعين تاب، وأعزاز، وتل خالد، وقورس، والراوندان، وبرج الرصاص، وحصن

البارة، وكفر سود، وكفر لاثا، ودلوك، ومرعش، ونهر الجوز، وغير ذلك من أعماله في مدة يسيرة. واجتمع الفرنج في سنة سبع وأربعين، وحشدت الفارس والراجل، وساروا نحو نور الدين وهو بدلوك، فلما قربوا منه رجع إليهم واقتتلوا قتالا شديدا كان الظفر له وقتل وأسر منهم، وعاد إلى دلوك فملكها، وكان نور الدين إذا فتح حصنا من هذه الحصون شحنه بما يحتاج إليه من الرجال والسلاح والذخائر وغيرها.

ذكر حصر قلعة حارم وفتحها

وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة حصر نور الدين قلعة حارم وشدد الحصار، فصالحه الفرنج على نصف أعمال حارم، وصالحهم ورحل عنهم، ثم فتحها في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

ذكر ملكه بانياس وما قرره على طبرية وأعمالها

وفي سنة تسع وخمسين ملك حصن بانياس، وكان بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، كما قدمنا، فنازله، فجمع الفرنج لقصده، فلم يكمل جمعهم إلا وقد ملك الحصن وشحنه بالرجال والذخائر، ثم شاطر الفرنج على أعمال طبرية، وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطروهم عليها في كل سنة مالا يحملونه إليه، والله أعلم.

ذكر فتح المنيطرة

والمنيطرة فيما بين طرابلس وبلبك، وهي الآن من الأعمال المضافة إلى المملكة الطرابلسية، فلما كان في سنة إحدى وستين وخمسمائة، سار نور الدين إليها جريدا، وملكها وأعجل الفرنج عن الاجتماع لرده، وسبى وغنم، فجاء الفرنج بعد أن ملكها فأيسوا منها، ورجعوا عنها، والله أعلم.

ذكر فتح صافيتا وعريمة

وفي سنة اثنتين وستين وخمسمائة جمع نور الدين العساكر وسار إليه أخوه قطب الدين من الموصل واجتمعا على حمص، فدخل بالعساكر إلى بلاد الفرنج بالساحل واجتاز على حصن الأكراد، فأغاروا ونهبوا وسبوا. وقصدوا عرقة فنازلوها وحصروها، وحصروا جبلة وأخذوها وخربوها. وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرب، وفتحوا العريمة، وصافيتا، وعادوا إلى حمص فصاموا بها شهر رمضان، وكان الفرنج في سنة ثمان وأربعين قد كبسوا عسكر نور الدين بالبقية على حين غفلة من العسكر، فنالوا من المسلمين منالا عظيما، فجعل نور الدين في مقابلة ذلك فتح حارم وبانياس والمنيطرة وصافيتا وعريمة وتخرب بلادهم، وأدرك ثأره عن غير بعد.

ثم سار بعد شهر رمضان إلى بانياس، وقصد العبور إلى بيروت، فجرى بين العسكر اختلاف أو جب رجوعه، وأعطى قطب الدين في هذه السنة الرقة، وأعادته إلى بلده. هذا ما فتحه رحمه الله من بلاد

الفرنج، فلنذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية.

ذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية

في سنة أربع وأربعين وخمسمائة، استولى الملك العادل على سنجار، وكانت بيد أخيه قطب الدين، ملكها بعد وفاة سيف الدين غازي، ثم حصل الاتفاق بينهما على أن يكون نور الدين صاحب حلب وحمص والرحبة والشام، وقطب الدين بالموصل وديار الجزيرة، وسلم سنجار لأخيه قطب الدين، وأخذ نور الدين ما كان من الذخائر بسنجار، وكانت كثيرة جدا، وعاد إلى حلب وقد حصل الاتفاق بينه وبين أخيه.

ذكر ملكه مدينة دمشق

وفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة ملك دمشق من مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغديكين، وسبب قصده لها أن الفرنج ملكوا في السنة التي قبل هذه السنة مدينة عسقلان، واستولوا على تلك النواحي، فلم يتمكن نور الدين من غزوهم ودفعهم، لأن دمشق تحول بينه وبينهم. ولم تمكنه مفاجأة صاحبها لعلمه أنه إن سار إليها راسل صاحب دمشق الفرنج واستنجد بهم. وكان قد استقر لهم ضريبة على دمشق تحمل إليهم في كل سنة، ويحضر رسلهم لقبضها، فزاد استيلاؤهم إلى أن أخذوا كل من فيها من الغلمان والجواري، بحيث أنهم يطلبون الغلام أو الجارية ويخيروه، إن اختار الرجوع إليهم أخذوه، اختار مولاه أو امتنع؛ وإن اختار المقام عند مواله تركوه. فأهم ذلك نور الدين، وخاف أن الفرنج متى استولت على دمشق ملكوا الشام أجمع، فأخذ في أعمال الحيلة وراسل مجير الدين صاحبها وهاداه وداهنه واستماله، وبقي يوقع بينه وبين أمرائه، فكتب إليه يقول: «إن فلانا الأمير قد كاتبني في تسليم دمشق»، فقبض عليه مجير الدين حتى اختل أمر عسكره وضعف. ثم راسل نور الدين الأحداث من الأمراء بدمشق، ووعدهم الجميل، فمالوا إليه ووعدوه بتسليمها له، فسار إليها. فلما نازها كاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم بعلبك ليمنعوا نور الدين عنه، فحشدوا فارسهم وراجلهم، فلم يتكامل جمعهم إلا وقد ملك نور الدين دمشق، سلمها له الأمراء، ودخلها من الباب الشرقي. وتحصن صاحبها بالقلعة، فبذل له نور الدين حمص، فرضي وسلم القلعة وسار إلى حمص، ثم عوضه عن حمص مدينة بالس فامتنع، وتوجه إلى بغداد ومات بها.

وفي سنة اثنتين وخمسين، ملك نور الدين حصن شيزر من آل منقذ، وكانت الزلزلة قد هدمت أسواره، فعمرها والله أعلم.

ذكر ملكه بعلبك

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ملك بعلبك وقلعتها وكانت بيد إنسان يقال له ضحاك البقاعي، منسوب إلى البقاع البعلبكي، كان صاحب دمشق قد ولاه إياها، فلما ملك نور الدين دمشق لم تمكنه مشاحته لقربه من الفرنج، فطاوله إلى الآن وملكها منه.

ذكر ملكه قلعة جعبر

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة ملك قلعة جعبر من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي وكانت بيده وييد آبائه كما تقدم، وكان السبب في ملكه لها أن صاحبها سار إلى الصيد، فأسره بنوكلاب وجاؤوا به إلى نور الدين في شهر رجب سنة ثلاث وستين، فاعتقله نور الدين وأكرمه في اعتقاله. وأخذ في طلبها باللين، فلم يوافق على إعطائها، ثم أخذه بالشدة فلم يوافق، فسير الجيوش لحصرها، فحوصرت مدة فلم يظفر منها بطائل، فعاد صاحبها بالملاطفة، وعوضه عنها سروج وأعمالها والملاحة التي من بلد حلب، وباب بزاعه، وعشرين ألف دينار معجلة، فقبل العوض وسلم القلعة، وهذه القلعة في عصرنا هذا إلى سنة أربع عشرة وسبعمائة خرابا لآباب عليها والله أعلم.

ذكر ملكه الديار المصرية

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة ملك أسد الدين شيركوه الديار المصرية بجيوش الملك العادل نور الدين، وهي السفرة الثالثة له إليها من قبل نور الدين، ونذكر ذلك مفصلا في أخبار الدولة الأيوبية، ودامت الخطبة بها للملك العادل مدة حياته، وصدرأ من أيام ولده الملك الصالح إسماعيل.

ذكر ملكه الموصل

وفي سنة ست وستين وخمسة ملك الموصل بعد وفاة أخيه قطب الدين، وأقر عليها سيف الدين غازي بن قطب الدين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار غازي. وأطلق نور الدين سائر المكوس بالموصل وبسائر البلاد، وجاءته الخلع من الخليفة المستنصر بالله، فلبسها، ثم خلعها على سيف الدين غازي ابن أخيه، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبني وأقام بالموصل عشرين يوما وعاد إلى الشام.

ذكر وفاته رحمه الله وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاة الملك العادل نور الدين محمود في حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسة، بعله الخوانيق، ولقب بعد موته بالشهيد، ومولده في سنة إحدى عشرة وخمسة، فيكون عمره نحو من ثمان وخمسين سنة، ومدة ملكه منذ وفاة أبيه ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر وستة أيام، ومن العجب أنه ركب إلى الميدان الأخضر بدمشق في ثاني شوال، ونصب فيه قبعا^(٤) فسايره حسام الدين مودود، وقال له: « أترى هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم من العام المقبل؟ » فقال له نور الدين: « لا تقل هكذا، قل: هل نكون ههنا بعد شهر؟ فإن السنة بعيدة » ورجع إلى القلعة، وختن ابنه وأصابته العلة، فمات بعد عشرة أيام. ومات الأمير حسام الدين قبل استكمال الحول، ودفن نور الدين بقلعة دمشق، ثم نقل إلى مدرسته التي بناها بجوار سوق الخواصين بدمشق وقبره هناك مشهور.

وأما سيرته وأفعاله رحمه الله تعالى فإنه أفرغ وسعه في الجهاد، واستنقذ من أيدي الفرنج ما ذكرناه، وكان ثابتا في حروبه، وبنى: المدارس، والمساجد، والربط، والبيمارستانات، والخانات، والطرق، والجسور، وجدد القني وأصلحها، وأوقف الوقوف على معلمي الخط لتعليم الأيتام، وعلى

سكان الحرمين الشريفين، وأقطع أمراء العرب الإقطاعات حتى كفوا عن التعرض إلى الحاج، وبنى أسوار المدن والحصون التي هدمتها الزلزلة التي ذكرناها في أخبار الدولة العباسية، وكان رحمه الله مواظبا على الصلاة في الجماعة، حريصا على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصدا في الإنفاق والمطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في سخطه وعاقب على شرب الخمر.

قال الشيخ عز الدين أبو الحسن علي بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير رحمه الله: « قد طالعت تواريخ الملوك المتقامين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه » قال: وكان رحمه الله لا يفعل فعلا إلا بنية حسنة، كان بالجزيرة رجل من الصالحين العباد، وكان نور الدين يكاثبه ويراسله فيرجع إلى قوله، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالأكرة، فكتب إليه يقول: « ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة؟ »، فكتب إليه نور الدين بخطه يقول « والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر، العدو قريب منا، وبيننا نحن جلوس إذ يقع الصوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا، إذ لا بد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جهاما لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جهامها، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب. فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة ».

قال: وحكي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة، فلم يحضرها عنده، فوصفت له، فلم يلتفت إليها، فبينما هم معه في حديثها إذ جاءه رجل صوفي فأمر له بها. فقيل له إنها لا تصلح

لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له. فقال: « أعطوها له، فانني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة»، فسلمت إليه، قيل والذي أعطيها شيخ الصوفية عماد الدين بن جموية، فبعثها إلى همدان، فبيعت بألف دينار.

قالوا: وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وسمع الحديث وأسمعه، وكان يعظم الشريعة المطهرة، ويقف عند أحكامها، فمن ذلك أنه كان يلعب بالكرة عند دمشق، فرأى إنساناً يحدث آخر ويومئ إليه بيده، فأرسل يسأله عن حاله، فقال: « لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني»، فلما قيل ذلك له ألقى الجوكان من يده، وخرج من الميدان وتوجه إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وأرسل إليه يقول: « إني قد جئت في محاكمة فاسلك معي ما تسلكه مع غيري.» فلما حضرا، ساوى خصمه وحاكمه، فلم يثبت قبله حق، وثبت الحق لنور الدين. فعند ذلك أشهد على نفسه أنه وهب الملك للذي حاكمه، وقال: « كنت أعلم أن لاحق له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يظن بي أي ظلمته، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له.»

قال: وهو أول من بنى دار الكشف وسماها دار العدل، وكان يجلس فيها في الأسبوع يومين، وعنده القاضي والفقهاء لفصل الحكومات بين القوي والضعيف، وكان شجاعاً حسن الرأي والمكيدة في الحرب، عارفاً بأمور الأجناد، وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين^(٥) وبأشر القتال بنفسه. وكان يقول: « طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها.»

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده. كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداً، أقر الإقطاع عليه، فإن كان كبيراً استبد بتدبير نفسه، وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه ويتولى أمره إلى أن

يكبر، فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سببا عظيما للنصر في المشاهد والحروب. قال: وبنى أسوار مدن الشام وقلاعها، فمنها: حلب، وحماه، وحمص، ودمشق، وبارين، وشيزر، ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون، وأخرج عليها الأموال الكثيرة التي لا تسمح النفوس بمثلها، وبنى المدارس بحلب، وحماه ودمشق، وغيرها. وبنى الجوامع في كثير من البلاد، فمنها جامعها بالموصل، إليه النهاية في الحسن والإتقان، وفوض عمارته والخروج عليه للشيخ عمر الملاء، وكان من الصالحين، فقليل له إنه لا يصلح لمثل هذا العمل، فقال: « إذا وليت بعض أصحابي من الأجناد والكتاب، أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات، فلا يفي عمارة الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإن ظلم كان الاثم عليه لا علي»، وبنى أيضا بمدينة حماه جامعاً على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأزهرها، وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم بسبب زلزلة وغيرها، وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها وأشهرها البيمارستان الذي بناه بدمشق، وقفه على كافة المسلمين من غني وفقير، وبنى الربط والخانقاهات للصوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وأدر عليهم الإدارات الصالحة.

قال: وكان قد ضبط ناموس الملك إلى غاية لامزيد عليها، فكان يلزم الأجناد بوظائف الخدمة، ولا يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس، إلا نجم الدين أيوب، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه وغيره، فإنهم كانوا يقفون حتى يأمرهم بالجلوس، وكان مع ذلك إذا دخل عليه الفقير والصوفي والفقير يقوم له ويجلسه إلى جانبه. وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول إن هؤلاء لهم في بيت المال حق، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا.

ولم يزل الناس معه في غاية الأمن والخير والبركة والنمو والإحسان

والعدل والبر، وإظهار السنة، وقمع البدعة إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى.

ذكر أخبار الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين أتابك زنكي بن أقسنقر

ملك بعد وفاة والده في حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسة. وحلف له الأمراء وأطاعه الناس في سائر البلاد وخطب له الملك الناصر صلاح الدين يوسف بالديار المصرية، ولم يكن الملك الصالح إذ ذاك قد بلغ الحلم، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم.

قال العماد الأصفهاني الكاتب: وورد كتاب صلاح الدين بالمثل الفاضلي معزيا للملك الصالح وفي آخره: « وأما العدو خذله الله تعالى فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهازه، وسيل لقراره ، إلى أن يزعجه من مجائمه، ويستوقفه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم، وأيسر لوازمه. أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم، وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة، وفيما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الاسلام عالما أن الجماعة رحمة».

قال: ولما بلغ سيف الدين غازي بن قطب مودود وفاة عمه، استبشر لذلك، ونادى بالموصل بالفسحة في الشرب واللهو، وكان الخبر قد أتاه وهو سائر إلى خدمة عمه نور الدين، فإنه كان قد استدعاه بالجيوش، فعاد وهرب سعد الدين كمشتكين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار سيف الدين غازي مبيناً، قال: ولما اتفق ذلك منه لم يكتب

الجماعة الذين في خدمة الملك الصالح إلى صلاح الدين يوسف بالخبر، خوفاً أنه إذا بلغه ذلك قصدهم، واستولى على الملك الصالح وأبعدهم، فشق ذلك عليه، وكان من أمره ما ذكره إن شاء الله تعالى.

قال: وأقام الملك الصالح بدمشق وجماعة الأمراء عنده لم يمكنوه من المسير إلى حلب، لثلاثي يغلبيهم عليه شمس الدين بن الداية، ويختص بخدمته، فإنه كان من أكبر الأمراء النورية. ولما وصل كمشتكين من الموصل إلى حلب أحسن إليه الأمير شمس الدين ابن الداية، وأكرمه، وجهزه إلى دمشق لإحضار الملك الصالح منها إلى حلب، وجهز معه العساكر. فلما قارب دمشق سير الأمير شمس الدين محمد بن المقدم عسكرياً إليه، فهزموه. ونهبوا ما معه، فعاد إلى حلب منهزماً، فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه، ثم نظر أمراء دمشق المصلحة، فعلموا أن مسيره إلى حلب أجود من مقامه بدمشق. فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون سعد الدين كمشتكين ليأخذ الملك الصالح، فجهزه إليهم، فسار إلى دمشق في المحرم سنة سبعين وخمسة، فأخذ الملك الصالح وعاد به إلى حلب. فلما وصل إليها، قبض سعد الدين على ابن الداية وإخوته، وعلى الرئيس ابن الخشاب رئيس حلب، ومقدم الأحداث بها.

واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح، فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء بدمشق أن سعد الدين يسير إليهم ويفعل بهم كما يفعل بابن الداية، فراسل سيف الدين غازي بن مودود في الحضور من الموصل ليتسلم دمشق، فخشي غازي أن تكون مكيدة فلم يحضر، فراسله سعد الدين، واتفق الحال على أن يستقر بيده ما استولى عليه من الأعمال الجزيرية. فقال أمراء دمشق: حيث صالح سيف الدين، لم يبق له مانع من المسير إلى دمشق. فراسلوا الملك الناصر صلاح الدين في الحضور من مصر ليتسلمها، فوصل إليها، وتسلمها، وملك حمص وحماه وبعليك. ولم يقطع خطبة الملك الصالح، وأظهر أنه إنما حضر لخدمته،

واسترجاع ما استولى عليه سيف الدين غازي وغيره من الأعمال الجزيرية. ثم كان بينه وبين العسكر الحلبي من الحروب ما نذكره في أخبار الدولة الأيوبية، إلى أن أحوجوه إلى الاستقلال بالأمر والخطبة لنفسه وملك البلاد.

ذكر مقتل سعد الدين كمشتكين وحصر الفرنج حارم

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، قبض الملك الصالح على سعد الدين، وهو المتولي على أمر دولته، والحاكم فيها. وسبب ذلك أن أبا صالح بن العجمي كان من أكابر حلب، وكان مقدا عند نور الدين، وتقدم عند ولده وأطاعه الناس، وكثرت أتباعه، فوثب عليه بعض الباطنية بالجامع فقتله، فنسب ذلك لسعد الدين فوشوا به عند الملك الصالح، فقبض عليه. وكانت حارم اقطاعه، فامتنع من بها من تسليمها، فسيره الملك الصالح تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها، فأمرهم فلم يرجعوا إلى قوله، وعذب وهم ينظرون إليه إلى أن مات تحت العقوبة. فبلغ الفرنج ذلك، فنازلوا قلعة حارم ونصبوا عليها المجانيق، فصالحهم الملك الصالح على مال ففارقوها، وتسلمها بعد حصار ثان، ورتب فيها من المماليك النورية من يحفظها.

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل

كانت وفاته لخمس بقين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وابتدأت علته في تاسع الشهر، وكان مرضه القولنج ومات وله من العمر تسع عشرة سنة، وقيل في سبب وفاته إن علم الدين سليمان بن جندر سقاه في عنقود عنب وهو في الصيد؛ وقيل بل سقاه ياقوت الأسدي في شراب، فعظم موته على سائر الناس، وحزنوا لفقده حزنا شديدا.

قال ابن الأثير: ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر للتداوي، فاستفتى الفقيه علاء الدين الكاشاني، وأفتاه بجواز شربها، فقال: « إن كان الله قد قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر؟ » فقال: لا والله فقال: « والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه علي » ومات رحمه الله ولم يشربها.

ولما أيس من نفسه أحضر الأمراء والأجناد في الثالث والعشرين من شهر رجب وأوصاهم بتسليم البلد لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، واستحلفهم على ذلك، فقال بعض أصحابه: إن عز الدين ملك الموصل وله ما يكفيه ولو أوصيت بها لابن عمك عماد الدين زنكي فإنه تربية والدك، وزوج أختك، وليس له غير سنجار؟ . فقال: « إن هذا لم يغب عني، ولكن قد علمتهم أن صلاح الدين قد تمكن . وتغلب على عامة البلاد الشامية، ومتى كانت حلب لعماد الدين عجز عن حفظها وعز الدين يحفظها، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام، فاستحسن الناس ذلك منه، وعجبوا من جودة رأيه مع صغر سنه، وأن مرضه لم يشغله عن حسن اختياره. ثم مات رحمه الله.

وكان عفيف اليد والفرج واللسان، لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب، حسن السيرة، عادلا في رعيته. وبوفاته انقرض عقب نور الدين المذكور.

ولنرجع إلى ذكر ملوك الموصل الذين ملكوا بعد وفاة سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي.

ذكر أخبار قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر

ملك الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي في أواخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسة، وذلك أنه لما مات سيف الدين غازي اجتمعت كلمة الوزير جمال الدين الأصفهاني، وزين الدين علي أمير الجيش على تولية قطب الدين طلبا للسلامة، فاستحلفوه وحلفوا له، وركبوه إلى دار السلطان، وأطاعه سائر البلاد التي كانت تحت يد أخيه، وتزوج الخاتون ابنة حسام الدين ثمرتاش صاحب ماردين. وكان سيف الدين غازي قد تزوجها ولم يدخل بها، فتزوجها قطب الدين وهي أم أولاده الملوك.

قال: ولما ملك قطب الدين كان نور الدين بحلب، وهو أكبر منه، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه، فسار إليهم، وقصد انتزاع الملك من أخيه قطب الدين، ثم انفقا وعاد نور الدين إلى حلب، وشهد قطب الدين بعض الحروب مع أخيه نور الدين، كما ذكرناه في أخبار نور الدين.

ذكر القبض على الوزير جمال الدين محمد بن علي ابن المنصور الأصفهاني ووفاته وشيء من أخباره وسيرته

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسة قبض قطب الدين على الوزير جمال الدين واعتقله، فتوفي في اعتقاله في شعبان سنة تسع وخمسين، ولعمري ما كان يستحق أن يعتقل، وهو الذي عمل على إثبات الملك في البيت الأتابكي بعد قتل الشهيد أتابك زنكي، على ما قدمنا في أخبار سيف الدين غازي.

قال ابن الأثير الجزري رحمه الله في تاريخه الكامل: حكى لي إنسان

صوفي يقال له أبو القاسم؛ كان مختصا بخدمته في الحبس، قال: « لم يزل مشغولا في محبسه بأمر آخرته، وكان يقول كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر، فلما أن مرض قال لي في بعض الأيام: يا أبا القاسم إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفني» قال: « فقلت في نفسي قد اختلط عقله » ، فلما كان الغد أكثر السؤال عنه، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط، فقلت: « قد جاء الطائر»، فاستبشر ثم قال: « جاء الحق»، وأقبل على الشهادة، وذكر الله تعالى إلى أن توفي، فلما توفي طار ذاك الطائر، فعلمت أنه رأى شيئا في معناه».

ودفن بالموصل عند فتح الكرامي رحمة الله عليهما نحو سنة، ثم نقل إلى المدينة، فدفن بالقرب من حرم النبي صلى اله عليه وسلم في رباط بناه لنفسه. وقال لأبي القاسم: « بيني وبين أسد الدين شيركوه عهد : من مات قبل صاحبه حمله إلى المدينة، فدفنه بها في التربة التي عملها، فإذا أنا مت فامض إليه وذكره».

فلما توفي سار أبو القاسم إلى شيركوه في المعنى، فقال له شيركوه: كم تريد؟ فقال: « أريد أجرة حمل يحمله، وحمل يحملني وزادي» فأنتهره وقال: « مثل جمال الدين يحمل هكذا إلى مكة» وأعطاه مالا صالحا ليحمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين، وجماعة يقرأون بين يدي تابوته إذا حمل وإذا أنزل عن الحمل، فإذا وصل إلى مدينة يدخل أولئك القراءون ينادون للصلاة عليه، فيصلي عليه في تكريت، وبغداد والحلة، وفيد، ومكة، والمدينة، وكان يجتمع له في كل بلد من الخلق ما لا يحصى، ولما أراد الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وأنشد بأعلى صوته:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما
سرى جوده فوق الركاب ونائله

يمر على الوادي فتثنى رماله
عليه وبالنادي فتثنى أرامله

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم، وطافوا به حول الكعبة ، وصلوا عليه
بالحرم الشريف، وبين قبره وقبر النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر
ذراعا.

. وأما سيرته رحمه الله فكان أسخى الناس، وأكثرهم بذلا للمال، رحيا
بالخلق، متعظفا عليهم عادلا فيهم، فمن أعماله الحسنة أنه جدد بناء
مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا كثيرة، وبنى الحجر بجانب
الكعبة، وزخرف الكعبة وأذهبها وعملها بالرخام. ولما أراد ذلك أرسل إلى
المتقي لأمر الله هدية جليلة، وطلب منه ذلك، وأرسل إلى الأمير عيسى
أمير مكة هدية كبيرة، وخلعا ثمينة، منها عمامة شراها بثلاثمائة دينار،
حتى مكنه من ذلك، وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات،
والدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم،
وعمل بعرفات أيضا مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نعيان في طرق
معمولة تحت الأرض، وأخرج على ذلك مالا كثيرا وكان يجري الماء في
المصانع في كل سنة أيام الحج، وبنى سورا على مدينة النبي صلى الله
عليه وسلم. وعلى فيد.

وكان يخرج على باب داره في كل يوم للصعاليك والفقراء مائة دينار
أميري؛ هذا سوى الإدارات والتعهدات للأئمة والصالحين وأرباب
البيوت. ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على
دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص
والكلس، فقبض قبل أن تكمل عمارته وبنى أيضا جسرا كذلك على
النهر المعروف بالأرصاد، وبنى الربط. وقصدته الناس من أقطار الأرض،

وكانت صدقاته وصلاته من أقاصي خراسان إلى حدود اليمن، وكان يشتري الأسرى في كل سنة بعشرة آلاف دينار، هذا من الشام حسب، سوى ما يشتري من الكرج.

وقال ابن الأثير أيضا: حكى لي والدي عنه قال: كثيراً ما كنت أرى جمال الدين إذا قدم إليه الطعام يأخذ منه ومن الحلوى، ويتركه في خبز بين يديه. فكنت أنا ومن يراه نظن أنه يحمله إلى أم ولده علي، فاتفق أنه في بعض السنين جاء إلى الجزيرة مع قطب الدين، وكنت أتولى ديوانها، وحمل جاريتته أم ولده إلى داري لتدخل الحمام، فبقيت في الدار أياماً، فبينما أنا عنده في الخيام، وقد أكل الطعام فعل كما كان يفعل. ثم تفرق الناس فقمت فقال: «أقعد» فقعدت. فلما خلا المكان قال لي: «قد أثرتك اليوم على نفسي، فإنني في الخيام ما يمكنني أن أفعل ما كنت أفعله، خذ هذا الخبز واحمله أنت في كمك في هذا المنديل، واترك الحماقة من رأسك، وعد إلى بيتك، فإذا رأيت في طريقك فقيراً يقع في نفسك أنه مستحق، فأقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام»، قال: ففعلت ذلك، وكان معي جمع كثير ففرقتهم في الطريق لئلا يروني أفعل ذلك، وبقيت في غلmani، فرأيت في موضع إنساناً أعمى وعنده أولاد له وزوجته، وهم من الفقر على حال شديد، فنزلت عن دابتي إليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم إياه، وقلت للرجل تجيء غداً بكرة إلى دار فلان، أعني داري - ولم أعرفه نفسي - فإنني آخذ لك من صدقة جمال الدين شيئاً. ثم ركبت إليه العصر، فلما رأني قال: «ما الذي فعلت في الذي قلت لك؟» فأخذت أذكر له شيئاً يتعلق بدولتهم فقال: «ليس عن هذا أسألك، إنما أسألك عن الطعام الذي سلمته إليك؟» فذكرت له الحال ففرح، ثم قال: «بقي أنك قلت للرجل يجيء إليك هو وأهله فتكسوهم وتعطيهم دنانير وتجري لهم كل شهر دنانير؟» قال: فقلت له: «قد قلت للرجل يجيء إلي» فزاد فرحاً وفعل للرجل ما قال، ولم يزل

يصل إليه رسمه حتى قبض. قال: وله من هذا كثير. فمن ذلك أنه تصدق بثيابه من على بدنه في بعض السنين التي تعذرت فيها الأقوات.

ولما وقفت على ترجمته لهجت بالترحم عليه ، وقرأت ختمه شريفة في شهر رمضان سنة أربع عشرة وسبعمائة، وسألت الله تعالى أن يسطر ثوابها في صحيفة حسناته ، وقررت ذلك على نفسي في كل سنة في شهر رمضان، وأرجو أن لأقطعها ما لم أنسى ذلك، رحمه الله تعالى.

ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة فارق زين الدين علي بن بكتكين، النائب عن قطب الدين خدمته، وسار إلى إربل . وكان هو الحاكم في الدولة، وأكثر البلاد بيده، ومنها إربل وبها أهله وأولاده وخزانتة، وشهرزور وجميع القلاع التي معها، وجميع بلاد الهكارية وبلد الحميدية، وتكريت وسنجار، وحران، وقلعة الموصل هو بها، وكان قد أصابه طرش ثم عمي، فلما عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل، سلم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قطب الدين، وبقي معه إربل خاصة، وكان شجاعا عاقلا حسن السيرة سليم القلب ميمون النقيبة، ما انهزم من حرب قط، وكان كريما كثير العطاء للجنود وغيرهم، فمن عطاياه أن الحيص يبص الشاعر قد امتدحه بقصيدة، فلما أراد إنشادها قال له: « أنا لا أعرف ما تقول، ولكنني أعلم ما تريد» وأمر له بخمسمائة دينار وخلعة وفرس، فكان مجموع ذلك بألف دينار، ولم يزل بإربل إلى أن مات بها في هذه السنة.

ولما فارق زين الدين قلعة الموصل، سلمها قطب الدين إلى فخر الدين عبد المسيح وحكمه في البلاد، فعمر القلعة وكانت خرابا، لأن

زين الدين كان قليل الالتفات إلى العمارة، وسار عبد المسيح سيرة شديدة، وسياسة عظيمة وكان خصياً أبيض من ممالك أتابك زنكي.

ذكر وفاة قطب الدين مودود وملك ولده سيف الدين غازي

كانت وفاة قطب الدين مودود بن زنكي بالموصل في ذي الحجة سنة خمس وستين وخمسمائة، وقيل في شوال منها. وكان مرضه حمى حادة فكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهوراً، وكان من أحسن الملوك سيرة، وأعفهم عن أموال الرعية، كثير الإنعام والإحسان إليهم، محبوباً إلى كبيرهم، وصغيرهم عطوفاً على شريفهم ووضعهم، كريم الأخلاق. ولما مات رحمه الله تعالى ملك بعده ولده سيف الدين غازي.

ذكر أخبار سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي

ملك الموصل، وما كان بيد والده قطب الدين بعد وفاته في ذي الحجة أو شوال سنة خمس وستين وخمسمائة؛ بوصية من أبيه، وكان والده قد أوصى بالملك بعده لولده الأكبر عماد الدين زنكي، فحرف عبد المسيح رأيه عنه. فلما كان في اليوم الثاني استخلف سيف الدين غازي، فاستقر في الملك بعد وفاة أبيه، واستولى عبد المسيح على المملكة. ولم يكن لغازي معه غير الاسم، فاتصل ذلك بنور الدين محمود، فأزعجه وأنف منه وكبر لديه، فسار إلى الموصل سنة ست وستين، ودخلها من غير قتال، وكان الجند والعوام قد كاتبوه في تسليم البلد إليه، فلما علم بذلك عبد المسيح كاتبه أيضاً وسأله الأمان، فأمنه وقال: « لاسبيل أن يكون بالموصل »؛ ونقله إلى الشام، ودخل نور الدين الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى القلعة

خادما يقال له سعد الدين كمشتكين، وجعله دزدارا ثم عاد إلى الشام رحمه الله.

ذكر ملك سيف الدين غازي البلاد الجزيرية

كان سبب ذلك أن عمه الملك العادل نور الدين قد استدعاه بعساكر الموصل وديار الجزيرة وغيرها لقصد الغزاة ، فسار سيف الدين غازي وجعل على مقدمته سعد الدين كمشتكين، فلما كانوا ببعض الطريق، وافاهم الخبر بوفاة نور الدين، فهرب سعد الدين جريداً، واستولى غازي على بركه وثقله وموجوده، وعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشحن إلى الخابور، واستولى عليه وأقطعه، وسار إلى حران فحصرها عدة أيام، وبها قايماز الحراني مملوك نور الدين، فأطاعه بعد امتناع على أن تكون حران له ، فلما نزل إليه، قبض عليه سيف الدين غازي، وسار إلى الرها فحصرها وملكها، وبها خادم خصي أسود لنور الدين، فسلمها وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر، فأعطيتها ثم أخذت منه، ثم انتهى حاله إلى أن استعطى ما يقوم به.

وسير سيف الدين إلى الرقة، فملكها وملك سروج وجميع بلاد الجزيرة، إلا قلعة جعبر لحصانتها، ورأس عين لأنها كانت لقطب الدين صاحب ماردين، وعاد عبد المسيح إلى خدمة سيف الدين من سيواس، وحسن لسيف الدين العبور إلى الشام ليملكه، فأشار عليه عز الدين محمود - وهومن أكابر الأمراء - أن يقتصر على ما بيده ، فرجع إليه وعاد إلى الموصل ، وذلك في سنة تسع وستين وخمسةائة.

ذكر حصره أخاه زنكي بسنجار

وفي سنة سبعين وخمسةائة في شهر رمضان حصر سيف الدين غازي أخاه عماد الدين زنكي بسنجار، وكان سبب ذلك أن الملك الصالح

إسماعيل بن نور الدين كتب إلى سيف الدين يستحثه على الوصول إليه ليدفع الملك الناصر صلاح الدين يوسف عن حلب، فجمع سيف الدين غازي العساكر، وكاتب عماد الدين في اللحاق به. وكان صلاح الدين قد كاتبه وأطمعه في الملك، فامتنع عماد الدين بسبب ذلك، فجهز سيف الدين العساكر مع أخيه عز الدين مسعود إلى الشام، وتوجه هو لحصار أخيه بسنجار، فحصرها، وبينما هو كذلك، إذ أتاه الخبر بانضمام أخيه مسعود من صلاح الدين، فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده، ورحل إلى الموصل. ثم كان بين سيف الدين وبين الملك الناصر ما نذكره في أخبار الملك الناصر من هزيمة غازي في سنة إحدى وسبعين.

ورجع إلى الموصل، وعزل عز الدين زلفندار واستعمل مكانه في إمارة الجيش مجاهد الدين قايماز.

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة عصى شهاب الدين محمد بن مروان صاحب شهرزور على سيف الدين غازي، وكان قبل ذلك في طاعته، فراسله في معاودة الطاعة، فعاد وحضر إلى الخدمة.

ذكر وفاة سيف الدين غازي

كانت وفاته في ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة وكان مرضه السل، فطال به، ثم أدركه برسام فمات، وعمره نحواً من ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً، وكان حسن الصورة تام القامة أبيض اللون، وكان عاقلاً وقوراً قليل الالتفات إذا ركب، وإذا جلس، ولم يذكر عنه في نفسه ما ينافي العفاف، وكان شديد الغيرة لا يدخل دوره غير الخدام الصغار، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ الأموال على شحه وجبنه.

ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده معز الدين سنجر شاه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة، فخاف على الدولة من ذلك، لتمكن صلاح الدين يوسف بالشام، وامتنع عز الدين مسعود من الموافقة والأيمان، فأشار الأمراء أن يكون الملك بعده لعز الدين مسعود أخيه، ففعل، وجعل لولده سنجر شاه جزيرة ابن عمر وقلاعها، وجعل قلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك.

ذكر ملك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي

ملك الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي في ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وقام بتدبير دولته مجاهد الدين قايباز. وفي سنة سبع وسبعين كانت وفاة الملك الصالح اسماعيل، وأوصى بحلب لعز الدين مسعود كما ذكرناه في أخباره. فكاتبه الأمراء بذلك واستدعوه لتسليمها، فسار إليها ومعه مجاهد الدين قايباز، فدخلها في العشرين من شعبان منها وأقام بحلب عدة شهور ثم سار إلى الرقة.

ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين زنكي وأخذ سنجار عوضاً عنها

قال: ولما فارق عز الدين مسعود حلب، ووصل إلى الرقة، جاءته رسل أخيه عماد الدين زنكي صاحب سنجار يطلب منه أن يسلم إليه مدينة حلب ويأخذ سنجار، فلم يجب إلى ذلك، فراسله مرة أخرى وألح في طلبها، وقال متى لم تسلم إليّ حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين، فأشير بتسليمها إليه فسلمها له، وتسلم سنجار، وعاد إلى الموصل.

ذكر القبض على مجاهد الدين قايماز

وفي جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وخمسة قبض عز الدين مسعود على نائبه مجاهد الدين قايماز، ولما قصد القبض عليه لم يقدم عليه مفاجأة لقوة مجاهد الدين، فأظهر المرض وانقطع عن الركوب، فدخل إليه مجاهد الدين وحده، وكان خصيصا به لا يمنع من الدخول على النساء، فقبض عليه وركب لوقته إلى القلعة، واحتوى على أموال قايماز وخزائنه، وولى زلفندار قلعة الموصل، وجعل شرف الدين أحمد بن أبي الخير - وهو ابن أمير حاجب العراق - أمير حاجب، وحكمه في دولته، وكانت إربل وأعمالها تحت حكم مجاهد الدين، ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين علي، وهو صبي صغير. وتحت حكمه أيضا جزيرة ابن عمر، وهي لمعز الدين سنجر شاه ابن سيف الدين غازي، وهو صبي أيضا، ويبيده شهرزور وأعمالها ونوابه بها، ودقوقا، وقلعة عقر الحميدية ونائبه بها، ولم يكن مع عز الدين إلا الموصل خاصة، وقلعتها لمجاهد الدين، فلما قبض امتنع صاحب إربل عن الطاعة، واستبد صاحب الجزيرة، وأرسل الخليفة من حصر دقوقا وأخذها، ولم يحصل لعز الدين غير شهرزور والعقر، وصارت إربل والجزيرة أضر شيء عليه، وأرسل صاحب إربل إلى الملك الناصر صلاح الدين بالطاعة له، وقوي طمع الملك الناصر في الموصل لما قبض على مجاهد الدين، فلما رأى عز الدين ما حصل من الضرر والفساد بسبب قبض مجاهد الدين، قبض على شرف الدين أحمد الحاجب وزلفنداره، عقوبة لهما كونهما حسنا له القبض على قايماز.

ذكر اطلاق مجاهد الدين قايماز وما كان من العجم وانهزامهم

قال: وفي المحرم سنة ثمانين وخمسة أطلق عز الدين مسعود مجاهد الدين قايماز، وذلك بشفاعة شمس الدين بن البهلوان صاحب همذان

وبلاد الجبل. ولما أطلقه سيره إلى ابن البهلوان وإلى أخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين. فبدأ في مسيره بقزل وهو صاحب أذربيجان، فلم يمكنه من المضي إلى شمس الدين، وقال: « مهما يختار أنا أفعله»، وجهاز معه ثلاثة آلاف فارس، وساروا نحو إربل ليحصروها، فلما قاربوها أفسدوا في البلاد وخربوها، وسبوا وأخذوا النساء قهرا، ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم، وسار إليهم زين الدين يوسف صاحب إربل في عسكره، فلقبهم وهم قد تفرقوا للنهب، فانتهاز الفرصة وقاتل من لقي منهم، فهزهم وتمت الهزيمة على العجم، وغنم الإربليون أموالهم ودوابهم، وسلاحهم، وعاد العجم إلى بلادهم، وعاد مجاهد الدين إلى الموصل، وكان يقول: مازلنا ننتظر العقوبة من الله عز وجل على سوء فعل العجم.

ذكر وفاة عز الدين مسعود

كانت وفاته في التاسع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل مقابل دار المملكة وبقي في مرضه ما يزيد على عشرة أيام لا ينطق إلا بالشهادتين وتلاوة القرآن والاستغفار، وكانت مدة ملكه ثلاثا وعشرين سنة وسبعة أشهر إلا أياما، وكان خير الطبع، كثير الخير، والإحسان وزيارة الصلحاء وبرهم، وكان حليما قليل المعاقبة كثير الحياء لا يكلم جلساءه إلا وهو مطرق، وما قال في شيء سئله « لا » ولبس خرقه التصوف بمكة، وكان يلبسها في كل ليلة، ويخرج إلى مسجد بناه في داره فيصلي فيه نحو ثلث الليل، رحمه الله.

وملك بعده ولده نور الدين أرسلان شاه بن مسعود، وقام بتدبير دولته في ابتدائها مجاهد الدين قايماز مدبر دولة والده، واستمر نور الدين أرسلان شاه في الملك إلى سنة سبع وستائة، فتوفي في أوائل شهر ربيع منها، ودفن في مدرسته التي أنشأها مقابل داره بالموصل، وكانت علته

قد طالّت ، وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا، وكان بينه وبين الملك العادل بن أيوب مخالفة، ثم اتفاق ومصاهرة، وكان شهما شجاعا ذا سياسة للرعايا شديدا على أصحابه مانعا من تعدي بعضهم على بعض.

ولما مات ملك بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، وكان والده قد حلف له العساكر، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي قلعة عقر الحميدية وقلعة شوس، وأمر أن يتولى تدبير دولة القاهر فتاه بدر الدين لؤلؤ ، فقام بتدبير الدولة والنظر في مصالحهما. واستمر الملك القاهر في الملك إلى سنة خمس عشرة وستمئة، فتوفي في ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الأول منها، فكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر، وكان كريما قليل الظم في أموال رعيته مقبلا على أمرائه، وملك بعده ولده نور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه ملك الموصل، بوصية من أبيه، وكان عمره يوم ذاك عشر سنين، وجعل الوصي عليه والمدبر لدولته بدر الدين لؤلؤ، فقام أحسن قيام، وراسل الملوك أصحاب الأطراف المجاورين له، وطلب منهم تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التي كانت اتفقت بينهم وبين أبيه، فوافقوه. وكتب إلى الديوان العزيز، فجاءته الخلع والتقليد من الخليفة بولاية نور الدين، ونظر بدر الدين في أمور الدولة فلم يلبث نور الدين إلا أن توفي في هذه السنة.

ولما مات استحلف بدر الدين لؤلؤ العساكر لأخيه ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه، وله من العمر ثلاث سنين. واستمر بدر الدين لؤلؤ في تدبير الدولة، فتجدد طمع عز الدين زنكي بن مسعود، ومظفر الدين عمية في ملك الموصل لصغر سنه، فجمع الرجال وتجهز للحركة، وقصدا أطراف الموصل بالنهب

والفساد، فخرج إليهم بدر الدين لؤلؤ بعساكر الموصل ، والتقوا، فكانت الهزيمة على العسكر البدري، وعاد إلى الموصل وتبعه مظفر الدين، ثم حصل الاتفاق بعد ذلك واستقر كل واحد على ما بيده. ثم ملك عماد الدين قلعة كواشي، وهي من أحسن قلاع الموصل.

ثم مات ناصر الدين محمود بعد مدة يسيرة، واستقر بدر الدين لؤلؤ بملك الموصل، وتلقب بالملك الرحيم ودامت أيامه إلى أن توفي في سنة سبع وخمسين وستائة، فكانت مدة ملكه نحو أربعين سنة، وملك بعده أولاده ، فكان الذي استقل بملك الموصل من أولاده الملك الصالح ركن الدين اسماعيل، قتله التتار في سنة تسع وخمسين وستائة، وملك الملك المظفر علاء الدين علي سنجار، ولما استولى التتار على هذه الممالك وصل هؤلاء إلى الديار المصرية المحروسة في أيام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وجهزهم صحبة الخليفة المستنصر بالله، فكان من أمره وأمرهم ما ذكرناه ونذكره إن شاء الله تعالى، فلنرجع إلى ذكر أخبار عماد الدين زنكي بن مودود.

ذكر أخبار عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقتنقر

استقر ملكه بسنجان بعد وفاة أبيه، واستقلال أخويه سيف الدين غازي، ثم عز الدين مسعود بملك الموصل، ثم تعوض عماد الدين بحلب عن سنجان، كما قدمنا ذكره في أخبار عز الدين مسعود، ثم أخذ الملك الناصر يوسف منه حلب، وعوضه عنها بسنجان وربض الخابور، والرقعة، على ما نبينه إن شاء الله في أخبار الملك الناصر فاستقر ملكه أخيرا بسنجان وما معها في سنة تسع وسبعين وخمسة وثمانين وكان عادلا حسن السيرة في رعيته عفيفا عن أموالهم، كثير التواضع ، يجب أهل

العلم والدين، ويجلس معهم، ، ويرجع إلى آرائهم إلا أنه كان شديد البخل.

ولما مات ملك بعده ولده قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرناقش مملوك أبيه، وكان ديناً خيراً عادلاً حسن السيرة، واستمر ملك قطب الدين بسنجار إلى سنة ست عشرة وستائة، فتوفي في ثامن صفر منها، وكان كريهاً حسن السيرة في رعيته كثير الاحسان إليهم، وكان قد سلم الأمور إلى نوابه.

ولما مات ملك بعده ابنه عماد الدين شاهان شاه بن محمد. ولما ملك سار بعد شهور إلى تلعفر، وهي في مملكته فدخل عليه أخوه عمر بن محمد في جماعة فقتلوه.

وملك عمر بن محمد -- وهو فروخ شاه -- فبقي بسنجار إلى أن أخذها الملك الأشرف في سنة سبع عشرة وستائة، وعوضه عنها بالرقعة. وهو آخر من ملك سنجان من البيت الأتابكي، فكانت مدة ملكهم لها أربعاً وتسعين سنة. وتوفي بعد أخذها منه بقليل. فلندكر أخبار أولاد غازي.

ذكر أخبار معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي

ملك جزيرة ابن عمر بعد وفاة والده في صفر سنة ست وسبعين وخمسةائة. وكان كثير الأذى لعمه عز الدين مسعود، فحاصر مسعود في سنة سبع وثمانين أربعة أشهر، واستقرت القاعدة بينهم على أن يكون لكل منهما نصف أعمال الجزيرة، وتكون الجزيرة بيد سنجر شاه في جملة النصف، ودام ملكه بالجزيرة إلى أن قتل.

ذكر مقتله وملك ولده معز الدين محمود

كان قتله في سنة خمس وستائة على يد ولده غازي. وسبب ذلك أن سنجر شاه كان سيء السيرة في رعيته وأولاده وجنده وغيرهم، فكان من جملة ما اعتمده مع أولاده أنه بعث ابنه محمودا ومودودا إلى قلعة أروخ من بلد الزوزان وأخرج ابنه غازي إلى دار بالمدينة أسكنه بها ووكل به من يمنعه من التصرف، وكانت الدار إلى جانب بستان لبعض الرعية فكان يدخل إليها من البستان الحيات والعقارب وغير ذلك من الحشرات، فاصطاد غازي حية وسيرها إلى أبيه لعله يرق له ويعطف عليه، فلم يزد إلا تماديا وإصراراً، فعندها آيس من خيره وأعمل الحيلة حتى نزل من الدار، ووضع إنسانا كان يخدمه أظهر أنه غازي، وخرج من بلاد الجزيرة وقصد الموصل، فشاع الخبر أن غازي قد توجه إلى الموصل وهو مختلف بالجزيرة ما خرج منها، ثم أعمل الحيلة وتسلق فنزل إلى دار أبيه، فستر عليه سراري والده لبغضهم في أبيه، ثم اتفق أن والده شرب في بعض الأيام، وسكر ودخل الخلاء، فضربه ابنه غازي هذا بسكين فقتله، ثم ذبحه وتركه ملقى وقعد يلعب مع الجواري. فخرج بعض الخدم الصغار إلى باب الدار، وأعلم أستاذ الدار بالخبر، فأحضر أعيان الدولة، وعرفهم الأمر وأغلق الأبواب على غازي واستحلف الناس لمحمود بن سنجر شاه، ودخل على غازي فمانع عن نفسه ثم قتلوه ورمي على باب الدار، وأكلت الكلاب بعضه ودفن باقيه.

ووصل محمود إلى البلد وملك ولقب معز الدين لقب أبيه وغرق الجواري اللواتي انفقن مع غازي على قتل أبيه في دجلة، ثم قتل محمود أخاه مودودا بعد مدة يسيرة.

ثم استقرت هذه الممالك الجزيرية وغيرها في يد بدر الدين لؤلؤ، وهو الملقب بالملك الرحيم، وملك أولاده من بعده إلى أن استولى عليها التتار في سنة سبع وخمسين وستائة. هذا ملخص ما وصل إلينا من أخبار هذه الدولة فلنذكر ما عداها.....

ذكر بيعة المستعلي

هو أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد، وهو التاسع من ملوك الدولة العبيدية، والسادس من ملوك مصر منهم، بويع له في بكرة نهار الخميس لاثني عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة

وذلك أن المستنصر بالله لما توفي بادر الأفضل أمير الجيوش بدخول القصر وأجلسه على تخت المملكة، وسير إلى إخوته نزار، وعبدالله، وإسماعيل، وأعلمهم بوفاة أبيهم، وأمرهم بسرعة الحضور، فلما حضروا شاهدوا أخاهم الصغير وقد جلس على سرير الخلافة، فامتعضوا من ذلك، فقال لهم الأفضل: تقدموا وقبلوا الأرض لله تعالى، ولمولانا المستعلي بالله وببايعوه، فهو الذي نص عليه الإمام المستنصر بالله قبل وفاته بالخلافة من بعده، فقال نزار: لو قطعت ما بايعت من هو أصغر مني سناً، وخط والدي عندي بولاية العهد، وأنا أحضره. وخرج مسرعاً ليحضر الخط فمضى إلى الإسكندرية، فسير الأفضل خلفه من يحضره، فلم يعلم أين توجه ولا كيف سلك، فانزعج الأفضل لذلك.

وقيل إنه لما توفي المستنصر بالله جلس بعده ولده أبو منصور نزار، وهو ولي العهد وأراد أخذ البيعة لنفسه فامتنع الأفضل أمير الجيوش من ذلك لكراهته فيه واجتمع بجماعة الأمراء والخوارج وقال لهم: إن هذا كبير السن ولا نأمنه على نفوسنا، والمصلحة أن نبايع لأخيه الصغير أبي القاسم أحمد. فوافقوه على ذلك إلا محمود بن مصال اللكبي، فإن نزاراً كان قد وعده بالوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل، فلما علم ابن مصال الحال أطلع نزاراً عليه.

وبادر الأفضل وبايع أحمد الخلافة، ونعته المستعلي بالله وأجلسه على

سرير الملك، وجلس الأفضل على دكة الوزارة، وحضر قاضي القضاة نصر الإمام علي بن الكحال ومعه الشهود، وأخذ البيعة على مقدمي الدولة ورؤ سائها وأعيانها، ثم مضى إلى إسماعيل وعبد الله، وهما بالقصر في المسجد وعليهما التوكيل، فقال لهما: إن البيعة قد تمت لمولانا المستعلي بالله، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: تبايعاني أم لا ؟ فقالا: السمع والطاعة ، إن الله اختاره علينا . وبإيعاه، وكتب بذلك سجل قرأه على الأمراء الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء ، وبادر نزار وأخوه عبد الله ومحمود بن مصال إلى الإسكندرية، وعليها ناصر الدولة أفتكين التركي، أحد ممالك أمير الجيوش بدر الجمالي، فعرفوه الحال ووعدوه بالوزارة، فبايعه أهل الثغر، ولقب بالمصطفى لدين الله.

ذكر ما اتفق لنزار ومن معه

قال: وفي محرم سنة ثمان وأربعمائة خرج الأفضل بعساكره إلى الإسكندرية لقتال نزار وأفتكين وابن مصال، فلما قرب منها خرجوا إليه والتقوا، واقتتلوا قتالا شديدا، فكانت الهزيمة على الأفضل ومن معه، فرجع إلى مصر ونهب نزار ومن معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحري.

ثم خرج الأفضل ثانيا وحاصر الإسكندرية ، واشتد الحصار إلى ذي القعدة. فلما اشتد الحال رأى ابن مصال مناما، فلما أصبح أحضر رجلا أعجميا وقال له: رأيت كأني راكب فرسا، وكان الأفضل يمشي في ركابي

فقال له العجمي: الماشي على الأرض أملك لها . فلما سمع منه ذلك جمع أمواله وهرب إلى لك قرية من قرى برقة، فعند ذلك ضعفت قوة نزار وأفتكين، فاضطر إلى مسالمة الأفضل وأرسلا يطلبان الأمان، فأمنها وفتحت البلد.

ودخل الأفضل الإسكندرية وقبض على نزار وأفتكين، وسيرهما إلى

مصر، وكان آخر العهد بنزار، قيل إنه جعله بين حائطين إلى أن مات. وكان مولده في عاشر شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة . وأما أفتكين فإنه أظهر قتله بعد ذلك للناس . وأما محمود بن مصال فكاتبه الأفضل ورغبه في العود، فعاد إلى مصر، فأكرمه الأفضل.

وفي سنة تسعين وأربعمائة خطب الملك رضوان صاحب حلب للمستعلي بالله أربع جمع، ثم قطع خطبته، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السلجقية والله أعلم .

ذكر استيلاء أمير الجيوش على البيت المقدس

وفي شعبان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الشام ونزل البيت المقدس، وهو في يد الأمير سقمان وإيلغازي، ابني أرتق، وجماعة من أقاربها. وخلق كثير من الأتراك.

فراسلها يلتمس منها تسليم البيت المقدس من غير حرب ولا سفك، فلم يجيباه لذلك، فنصب المجانيق وهدم منه قطعة، وقاتل، فاضطر التسليمه فسلماه له، فخلع عليهما وأطلقهما، وعاد الأفضل إلى مصر.

ونقل محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب في تاريخ مصر أن الأفضل لما رجع من بيت المقدس مر بعسقلان، وكان في مكان دارس بها رأس الحسين بن علي، رضي الله عنهما، فأخرجه وعطره وطيبه، وحمل في سبط إلى أجل دار بها، وعمر المشهد، ولما تكامل حمل الأفضل الرأس على صدره وسعى ماشيا إلى أن رده إلى مقره، ثم نقل إلى مصر على ما نذكره إن شاء الله، وقيل إن المشهد ابتداء بعمارتها بدر الجمالي وكمله الأفضل.